أرض الأفلوطين

د. فضل مسعود

ليليت للنشر
والتوزيع

أرض الأفلوطين

د.فضل مسعود

غلاف/ كريم محمد

مدقق لغوي أ. أحمد عبد العظيم

رقم إيداع ٢١١٠ / ٢٠١٥ط١

الترقيم الدولى / ١٠- ٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

01022661632 - 012242723

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithbook.com

جميـع الحقـوق محفوظـة للنـاشر وأي اقتبـاس أو إعـادة طبـع أو نـشر في أي صـورة كانـت ورقيـة أو إليكترونيـة أو في وسـيلة سـمعية أو بصريـة دون موافقـة . كتابيـة مـن النـاشر، يعـرض صاحبـه للمسـاءلة القانونيـة

إهداء

لرفيقة العمر .. وأولادي الأعزاء

العبقرية مكان

تفرد موقعها وعبقرية مكانها، تلك الهبات الربانية التي وهبها الله لمصرنا ليكون لها طبيعتها الجغرافية والمكانية والتي تميزها دون غيرها من بلدان العالم، وبفضل كل تلك المقومات والعطايا وبسواعد أبنائها تربعت مصر على عرش الممالك والحضارات، وكان لها سبقها وريادتها في كل العصور والأزمان، ويبقى النيل هو شريان حياتها وسر نهضتها ورقيها، ودائمًا أبدًا تراه يواصل تدفقه وسريانه وحيث يكون، يكون لمصر مجدها و مكانتها؛ فتمضى ترسم طريق مستقبلها وتحقق اهدافها وتسطر تاريخها بكل هوامشه وتفصيلاته من خلال مفاهيم وثوابت مؤكدة عن ماضيها وحاضرها

فعلى جانبي النهر الخالد تنتشر الجنات وتتنامى ، وتتزايد مساحات الجنان الخضر فتكسو الضفاف وتفترش السهول والوديان وفى شتى الأماكن، لا تخشى فيضانًا قد يداهمها ولا

ترهب جفافًا محتمل الحدوث ، ولقد تركت تلك اللوحات الفنية والجماليات الطبيعية تأثيراتها في كل مناحي حياتنا حتى في توجهاتنا وطباعنا، بل كان لها دورها الفاعل في تقويم تصرفاتنا ومضامين أفعالنا ونستطيع أن نقول أنها هي من أوجدت داخلنا كل المعاني الجميلة و زرعت فينا الإنسان دون تشوهات أو ديفوهات، لذا ليس غريبًا او مستغربًا أن ترى الطيبة والسماحة والألفة والحفاوة و الوجوه الحسان في كل مكان تصل إليه أو تخطوإليه، والتي هي من تؤنسك وتهبك الامل وتشعرك بالأمن والامان ،وتشد من إزرك أينما وجدت وحيث تكون؛ فنحن بالقطع محظوظون بنهرنا العظيم و نيلنا الغالي وأرضنا الطيبة ، فالماء والخضرة والوجه الحسن ليست عندنا من المقولات او المأثورات كما عند غيرنا من شعوب وبلدان ، بل هي حقيقة ندركها وواقع نعيشه و نلمسه ، شأنها في ذلك كباقي كل النعم والعطايا التي وهبنا الله إياها ، ومن هنا كان طبيعيًا أن يكون الحب والتراحم فيما بيننا و أن تسكن قلوبنا كل تلك العواطف والأحاسيس المرهفة الجياشة وتبقى دائمًا تحكمنا وتتحكم فينا ، ويظهر ذلك جليًا واضحًا في الكثير من تصرفاتنا وأمورنا الحياتية بل قد تؤثر على ردود أفعالنا و قراراتنا ، لذا

قد لا نصيب في بعض الأحيان ، وإن حدث وأخطأنا فالعيب فينا، لا في مشاعرنا وأحاسيسنا والتي من المؤكد أنها لا تُخطئ أبدًا ولا تحيد، لقد جبلنا عليها واكتسبناها وصارت هي السمة والطابع والحقيقة والواقع ، وأضحت لنا الصفات والعناوين.

وتبقى حضارتنا هي نتاج جهد واجتهاد من سبقونا من أجداد عظام على ضفاف ذات النهر عاشوا كما نحن الآن نعيش، حضارة مصرية ما أعظمها، ستبقى ما بقى التاريخ، وسيذكرها التاريخ فخورًا في كل سطوره وصفحاته وستبقى له كل معانيه وتظل دومًا هي المحتوى والمكنون، نعم هناك ظروف بيئية قد تتداخل لكنها وبالقطع لا تؤثر، كما أن هناك ثقافات وأفكار ربما تطرأ لكنها لا تحرك فينا ساكنًا، فنحن نمتلك الفكر والرؤى و لسنا أبدًا حكرًا لفكرة أو رأى ولن نكون، ويبقى لنا دومًا أفكارنا الخلاقة وموروثاتنا من الوعى والاستنارة، ولقد تعاقبت الحضارات وتتابعت ، وعلى ضفاف ذات النهر وشطآنه، بداية من المصرية القديمة مرورًا بالقبطية فالإسلامية حتى مصر الحديثة ، كل تلك الحضارات ستبقى محفورة في ذاكرة ووجدان البشرية جمعاء قبل ان تكون صفحات مكتوبة تروي التاريخ والأحداث، وستبقى آثارها الخالدة تشهد لها و التي هي دائمًا

ما تدلل على عنفوانها وجبروتها وتؤكد جدارتها واستحقاقها ، لذا فنحن ندين بالفضل لكل من سبقونا ونعتز بما تركوه لنا من تراث وموروثات، كان لها دورها البارز في التأكيد على الأخلاقيات والمبادئ والحفاظ على القيم والسلوكيات والسير دومًا علي دروب الاعتدال والوسطية ليكون ذلك هو منهجنا وأسلوب حياتنا ويظل هو الدرب والمسلك ما بقينا وعشنا .

فها هو المصري القديم نجده وقد كان متفردًا في أخلاقياته وتوصيفاته، و دائما يحسن تصريف أموره ويتحكم في ردود أفعاله ويسلك كل دروب الحكمة و الفضيلة وكان ذا فطنة وكياسة ينشد المحبة والإخاء ويمتلك الإدراك و الفراسة، وان شئت قل كان متدينًا بطبعه طبقًا لطبيعته التي فُطر عليها ، فمن منا لم يقرأ ما تركه لنا الجدود معبرًا عن محتوى و مكنون أفكارهم من ترانيم وأذكار خطت وحفرت على جدران معابدهم وفوق الحوائط وفى خبايا الدهاليز والأركان (لا تظلم لا تكذب لا تعذب حيوانًا أو طيرًا لا تلوث النهر ولا تكدر ماءَه)، لقد اهتموا بالنيل اهتمامًا ما بعده اهتمام وجعلوا له عيدًا هو من أهم أعيادهم كونه شريان الحياة ورمز الوجود لمصرهم الأرض والوطن ، وعليه قال هيرودوت مقولته المشهورة والمحفورة في الوجدان والذاكرة مصر

هبة النيل. كما اهتم المصريون القدماء بالأسرة ورعايتها اهتمامًا ما بعده اهتمام وعظموا دور المرأة وأعلوا من شأنها كونها الأم والزوجة والإبنة والأخت؛ فأضحت في عهدهم ومنذ آلاف السنين ملكة تسوس وتحكم، وها هي حتشبسوت ونفرتيتي وكليوباترا وغيرهن كثيرات، و لقد كان المصري القديم مؤمنًا بالبعث وأعد له العُدَّة والعتاد ، وعاش معتقدًا بوجود حياة أخرى غير حياته التي يحياها. نعم حدث كل ذلك من قبل سبعة آلاف سنة مضت، بل وأتم استعداده لتلك الحياة الأبدية الخالدة حسب اعتقاده وطبقًا لشفافية الفطرة وطبيعة النشأة والتكوين، ولقد رأينا بأم أعيننا كيف حافظوا على أجسادهم بتحنيطها، لتعيش آلاف السنين دون ان تتلف أو تبلى داخل توابيت وهياكل مصنوعة أُعدت لذلك خصيصًا، وتلك الكنوز وما وضعوه مع الموتى في مقابرهم عند دفنهم لتكون زادًا وزوادًا لهم عند بعثهم

أضف إلى ذلك تلك المراسيم الجنائزية والطقوس المصاحبة لعملية الدفن والتي تشرح وتبين أن الميت قد غادر الحياة الفانية والمقصود بها حياته الدنيوية بحلوها ومرها، بخيرها وشرها، ليبدأ رحلته إلى الحياة الأبدية الخالدة . ألم يكن كل

ذلك تدينًا وإيمانًا وإن اختلفنا في كيفية عدتهم وطبيعة ما أعدوه . وها هو اسم مصر الغالية مصر الحضارة والتاريخ من أين جاء ؟ لقد سميت بلادنا مصر نسبة إلى اسم مصرايم بن حام ابن نوح ثم جاء بعد ذلك قفطايم ابن مصرايم والذى منه جاءت كلمة قفط والتي وحتى يومنا هذا تسمى بها وتكنى بعض القرى في صعيد مصر وحرفت تلك الكلمة لتصبح بعد ذلك قبط وأطلقت هذه الكلمة على مصر وعليه كان الاسم باللاتينية الجبت وفى الانجليزية ايجبت . إذن المصريون جميعهم أقباط، مسلمين كانوا أو مسيحيين، ومهما مرت الأزمان وتوارت العصور والفترات ، منهم القبطي المسيحي و القبطي المسلم ، وهل ننسى أنه وعلى أرض الكنانة تلك عاش إخناتون أول من نادى بالتوحيد وعبادة الإله الواحد إله ما وراء الشمس وخالقها ، وذلك أفلوطين الفيلسوف المتصوف الزاهد والذى كان يدين بالديانة المصرية القديمة ، وهو من أبناء صعيد مصر وبالتحديد أسيوط وكان عابدًا ناسكًا للإله الواحد الذى لا اله الا هو وعاش متصوفًا محبًا، ذاب في الخالق عشقًا وتواصلاً ،و هامَ شوقًا وقربًا من رب الملكوت والممالك ، تشهد بذلك موسوعاته ومؤلفاته في الزهد والتصوف، فأضحي بزهده وتصوفه،

إمامًا للعابدين وملجأً للزاهدين والناسكين، وملاذًا لكل العباد والمتصوفين واضحت كتاباته الفلسفية حُجة ومرجعًا جعلت منه رائدًا للفلسفة ولكل المتفلسفين في القديم والحديث، ولقد عاش هذا الرجل قرابة السبعين عامًا وبالتحديد في الفترة من ٢٠٤م - ٢٧٢ م ، وصدقوني أن الكثير من المؤرخين قبل المريدين له يرونه من العظماء المعدودين على مر التاريخ بل إن البعض منهم ذهب للقول بأنه من أعظم مَن أنجبت مصر في كل العصور والأزمان رغم يقيني بأن الكثير لا يعرف مَن هو هذا الأفلوطين لكن بالقطع الكل يعلم من هو أفلاطون الفيلسوف الإغريقي الأوسع شهرة رغم أن أفلاطون يسبق أفلوطين بقرون وعقود من الزمان وبأكثر من ستمائة عام فلقد عاش أفلاطون قبل الميلاد بأكثر من اربعمائة عام، لكن أفلوطين وبشهادة كل معاصريه في كل العالم القديم شماله وجنوبه يسبق أفلاطون في اجتهاده وسعيه الدؤوب ويفوقه علمًا وفراسة لكن يبدو أن مقولة: « زمار الحى لا يطرب» صفة التصقت بنا منذ القدم ولم تكن جديدة أو مختلقة، وهذا لا يقلل من شان أفلاطون تلك العبقرية التي لا يختلف عليها اثنان لكن يوضح أن معجزة عصره وزمانه ابن مصر أفلوطين لم ينل حظه من الشهرة

والانتشار كما كان لغيره من علماء و أهل حكمة عاشوا عصره أو سبقوه ، وكلمة أفلوطين بالمناسبة تُعنى المبحر في علمه وعلومه وتعنى أيضًا المبحر شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا سعيًا لطرق كل دروب المعرفة والتعلم والبحث الدائم عن كل ما استجد من العلوم والسعي المتواصل من اجل تحصيلها ومن ثم تعليمها ونشرها في كل ربوع الدنيا ، ونبي الله إدريس والذى رفعه ربه مكانًا عليا وهو أول نبي بعد آدم وقبل نبي الله نوح والطوفان بأزمان وسنين ، هناك من يؤكد أنه على أرض مصر عاش وعليها كانت دعوته . ولقمان الحكيم ومن منا لم يسمع أو يقرأ وصاياه لابنه وكيف يوصيه وينصحه ويدله ويرشده ومن خلاله يرسل رسالته وتعاليمه ويعلم حكمته وأحكامه لكل الامم والشعوب قاطبة. وفى كل تلك الوصايا نرى الفراسة وحسن الإدراك ونستشف من مكوناتها ومن حروفها والكلمات رجاحة الفكرة وعمقها ومكنون الحكمة ومخزون المعارف والافكار ودقة التراكيب وتميز الأسلوب الأدبي لدى ذلك الحكيم المصري النوبي، وما أدراك ما النوبي. والنوبة تاريخ وقيم وأخلاقيات، أرض الذهب والخيرات، أرض النعم والتحضر والرقى عبر كل الدهور و الأزمان ، تربعت على عرش الممالك والحضارات

لفترات طويلة وضحى أهلها وقاطني أرضها بالكثير من أجل بلدهم ومصرهم الارض الحنون الطيبة والوطن العزيز الغالي .وهاهو الخضر صاحب العلم اللدونى ومعلم نبي الله موسى عليه السلام كان أيضًا من المصريين، وذو القرنين الذى ورد ذكره في القران الكريم والذى أوتى من كل شيء سببا، هناك من يدلل ويبرهن من الكُتَّاب والمؤرخين ويسوق العديد من الأدلة والقرائن والتي لا مجال لسردها الآن والتي تثبت أن ذي القرنين مصريًا شحمًا ولحمًا، وهو نفسه إخناتون . ثم هل ننسى نبي الله يوسف وأين عاش وألم تكن مصر أرضه ووطنه ؟ ألم يكن فيها وزيرًا بعد ما ناله من ظلم ومكايدة نتيجة لهوى نفس البعض من قاطنيها ثم عاش عليها مكرمًا ومبجلاً وعزيزًا بعد سجنه غدرًا وكيدًا وبهتانًا ، ألم يقل لملكها حين ذاك اجعلنِ على خزائن الأرض وما الأرض هنا إلا مصر، لكن المعنى أكبر وأشمل بكثير فقد ثبت أن ما تم تخزينه بصوامع مصر من تلال وأكوام من القمح والغلال كان كافيًا لكل مَن على الأرض قاطبة وليس مصر فقط ، وذلك خلال حقبة السنين العجاف وفترة الجفاف معلومة الزمن و التاريخ و التي اجتاحت العالم بكل ربوعه إبان عهد يوسف عليه السلام.

ولقد جاء يعقوب (إسرائيل) والأسباط ـ والمقصود بالأسباط هنا أبناء يعقوب أوبنى إسرائيل كما يلقبون ـ إلى أرض الكنانة وعاشوا وتعايشوا فيها وأكلوا من خيرها واستظلوا بظلها الوارف وتمتعوا بنعمها الوفيرة ، وتناسل بنو إسرائيل وتكاثروا وجاء من نسلهم الأنبياء والرسل؛ فمن سلالة لاوى ابن يعقوب جاءا هارون وموسى عليهما السلام واللذان ـ على ذات الأرض ـ ولدا وعاشا ونشرا دعوتهما فوق ربوع تلك المحروسة؛ كنانة الله وأرضه الطيبة. ووصلت الرسالة التي من أجلها بُعِثا وأُرسلا، ودخلت كل بيوتات مصر حتى قلاعها و قصورها، واجتاحت حصون المعابد وأسوارها، ودخلتها تدحض وتكذب أفكار وأفعال الكهنة والكهنوت فوصلت إلى قلوب المصريين وأفئدتهم فآمن الكثير منهم، وهذه هي مصر وتلك على مر العصور مكانتها وستبقى بإذن الله كذلك إلى يوم الدين رغم ما قد يعكر صفوها، ويكدر ماءَها في بعض الحقب و الأزمان.ثم هل هناك امرأة كرمت وتكرم ليل نهار من آلاف السنين وحتى قيام الساعة يقتدى بها ويسير على خطاها الملاين سعيًا وهرولة بين الصفا والمروة تأدية لشعيرة مقدسة لكل المسلمين والموحدين جاءت تكريمًا وتعظيمًا وتخليدًا لتلك المرأة ،إنها المصرية

العظيمة الخالدة هاجر، زوجة أبو الأنبياء إبراهيم وأم نبي الله إسماعيل عليهما السلام و جدة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والذى تزوج بحفيدتها ماريا المصرية في عهد مقوقس مصر فأضحت الحفيدة من أمهات المؤمنين كما كانت جدتها أمًا وجدة للأنبياء والمرسلين ، حتى فرعون موسى ذلك الطاغية والجبروت ألم تكن زوجته (آسيا) مصرية مؤمنة تؤمن بالله وتعمل بتعاليمه ؟ وهى من ربَّت ورعت بعناية من الله تعالى نبي الله موسى تلك المؤمنة الطاهرة التي كافأها ربها بأن بنى لها قصرًا في الجنة. وهاهم السحرة المصريون والذين أتى بهم فرعون ليدحضوا حجة نبي الله موسى حسب زعم فرعون وزعمهم ، فآمنوا برب موسى غير مبالين بصلبهم وتقطيع أجسادهم ، وهل ننسى المصري الذى جاء من أقصى المدينة ناصحًا موسى بترك البلاد خوفًا عليه وحرصًا على دعوته حيث كانوا ينوون قتله، وعلى إثر تلك النصيحة خرج موسى فارًا إلى أرض مدين ثم عاد إلى أرض الكنانة مرة أخرى فأضحت اليهودية دينًا وديانة00 وعندما فرت العذراء بوليدها من الظلم والاضطهاد، إلى أي البلاد كانت وجهتها؟

بالطبع كانت وجهتها مصر حيث الأمن والأمان ، وفتحت مصر ذراعيها لتحتضن العائلة المقدسة ولمدة سنتين حفاظًا وحماية لها وبعون من الله وفضله ومن أجل نصرة دين الله و المسيحية. وستبقى رحلة العائلة المقدسة على أرض مصر علامة مميزة خالدة مخلدة تشهد بذلك آثارها الباقية حتى يومنا هذا، وما تركته من معانٍ وانطباعات في نفوس كل المصرين وقلوبهم ، كما أن مصر هي الدولة الوحيدة في كل ربوع الدنيا التي ورد ذكرها صراحة عدة مرات في الكتب السماوية الثلاث التوراة والإنجيل والقرآن تكريمًا وتعظيما لها ولمكانتها ٠وعندما جاءت الى أرضنا المسيحية جاءتنا لينة سمحة وعاشت فينا بصبغة مصرية شرقية أصيلة ، وحتى أيامنا تلك وستبقى تدعو الى الحب والمحبة والتسامح، فيها الورع والتدين الحقيقي، تميزها أخلاقها الحميدة وأفعالها الحسنة، فلا هي مسيحية القرون الوسطى في أوربا حيث تحكم الكنيسة ومحاربة العلم والعلماء وتقديس الرهبان والقساوسة ومنح صكوك الغفران، ولا هي المسيحية الحالية في الغرب وأمريكا حيث الانحلال والتفكك الأسرى والانفلات الأخلاقي وتهميش الدين والمقدسات إلا في المناسبات والأعياد كنوع من العادات والتعودات اعتدوها

وتعـودوا عليهـا ، فأصبحـت لهـم سـلوكا وسمات لا يهمهـم دين أو عقيـدة، ولا يشـغل بالهـم أيـة مقدسـات .

والاسـلام عنـدنا هـو إسـلام وسـطي كما المسـيحية الوسـطية لا تطـرف فيـه ولا غلـو، هـو إسـلام الرحمـة والحـب والتسـامح ، إسـلام الحكمـة والتراحم والإخـاء ، فيـه الكلمـة الطيبـة شجـرة فروعهـا تعانـق السماء، فيـه المعامـلة الحسـنة والسـلوك الطيـب يرسمان طريـق الاسـتقامة والهـدى ، فيـه العـدل والرحمـة والمحبـة مصابيـح وقناديـل تنـير وتـضئ لنـا الطريـق ، لا يدعـو إلى فرقـة وتنافـر أو إلى اعتـداء وتعـدى، وإنما إلى وحـدة صف وتضافـر ، وهـا هـو أزهـرنا ومنـبرنا أقـدم جامعـة في العـالم بـين جدرانـه تعلمنـا وتربينـا، وقـام شـيوخنا وعلمـاؤنا الأجـلاء والـذين تعلمـوا فيـه أمـور دينهـم ودنيـاهم بنـشر مبادئـه الوسـطية المعتـدلة في كل ربـوع الدنيـا. نشروا الإسـلام علمًـا وفقهًـا وأخلاقًـا، وعلَّمـوا القـرآن تـلاوةً وتجويـدًا وبيـانًا ، ومـازال الأزهـر وسـيبقى عنـوانًا للوسـطية والاعتـدال والمحبـة والحكمـة والانـتماء، لا مـكان فيـه لمنافقـين و مرائـين أو منتفعـين وحاشـاه أن يكـون .

مما سـبق نخلـص إلى أن الـدين والمتدينـين في مـصرنا ومنـذ بـدء الخليقـة وُجـدا وعـلى ضفـاف نهـرنا عاشـا منـذ الأزل وإلى مـا شـاء

الله تعالى، لكن الغريب أن نرى في أيامنا هذه بعض الجهلاء والسفهاء يسعون جاهدين لتشويه تاريخ أجدادنا من المصريين القدماء وينعتوهم بما ليس فيهم جهلاً وزورًا، ، لكني أطمئنُك قارئي العزيز أن مصر كفيلة بكل هؤلاء وستغلق أبواقهم آجلاً أو عاجلاً ، وستردهم بالقطع خاسرين خاسئين، وعندها ستدرك السر في هجوم ونعيق تلك الشراذم البومية المتغربنة، وسنعلم أسباب تطاولهم وسبابهم ، فالجاهل السفيه لا يعي حدثًا مهما علا قدر هذا الحدث وزادت أهمية حدوثه، ولا يستوعب فكرًا أو عقيدة ، ولا يهمه أثرًا ولا يقدر له قيمته، ولا يعنيه بالتبعية كل الرموز والدلالات، ولا يفقه ما مكث وعاش ماهية الحضارة أو فلسفة التأريخ.

لعنتها

أعتقد أن الكثير قد سمع عن لعنة الفراعنة ، ليس في مصر وحدها ولكن في كل بلاد الدنيا ، فالويل كل الويل لمن يحاول حفر قبورهم أو امتهان كرامة موتاهم ومومياتهم ، ولعلنا نسمع العديد من تلك القصص والروايات بل إن هناك أساطيرًا قد نُسجت حول تلك اللعنة والتي تؤكد وتوثق لها ، لكنها أولاً وأخيرًا هي مجرد روايات لها مَن يؤيدها ومن ينكرها وينفيها، وكم كنت أتمنى حقيقة وجودها كي تطولهم وتلحق بهم الأذى؛ هؤلاء القراصنة ولصوص الآثار ونابشو القبور والذين حرمونا الكثير من كنوز أجدادنا وطمسوا بعضًا من صفحات تاريخنا ، وحاولوا سرقة ماضينا والذى هو أغلى وأثمن من كل سرقاتهم و ما نهبوه من ذهب وتوابيت وزئبق أحمر زعموا وجوده ، و لقد

ظهر أثر تلك اللعنة وذاع صيتها إبان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بواسطة العالم هوارد كارتر حيث داهم الموت حينها عدد غير قليل جميعهم من القائمين على اكتشاف المقبرة من عمال وعاملين وباحثين وعلماء حتى طال الممول لعملية الاكتشاف نفسه وهو اللورد كنافون، وكذلك المسكين عصفور الكناري الذهبي الخاص بكارتر وزميل كفاحه ورفيق دربه في اكتشاف المقبرة، والطائر المحبب جدًا إلى قلبه، حتى أن كارتر و من فرط حبه لهذا الطائر كان سيسمى المقبرة المكتشفة باسمه (العصفور الذهبي) حيث كانت نهايته يوم اكتشاف المقبرة حتى وإن كانت بسبب لدغة ثعبان من نوع الكوبرا، وفى شرفة منزل كارتر، كل ذلك جعل أحد علماء المصريات الأجانب يؤكد أن اكتشاف تلك المقبرة قد راح ضحيته ما يقارب الأربعين شخصًا أكثرهم من العلماء ، مما يعد خسارة فادحة خاصة إذا تم مقارنتها بعوائد الاكتشاف ومكاسبه بما فيها الملك توت عنخ آمون نفسه ذلك الملك الذى لا تذكر له أية إنجازات أو أحداث تاريخية مؤثرة كغيره من الملوك والفراعين في الأسرات المختلفة ، لكن تبقى تلك هي وجهة نظر ذلك العالم ورؤيته وهى لا تخص إلا مَن قالها ، أما من وجهة نظري والتي يتوافق معي ويوافقني عليها الكثيرون أن اكتشاف مقبرة توت عنخ امون

حدث فريد بل إنه إذا كان للقرن العشرين من أحداث فإن من أبرزها اكتشاف تلك المقبرة وهى تكاد تكون المقبرة البكر الوحيدة التي تم اكتشافها وأقصد بالبكر هنا أنها لم تنبش قبل الاكتشاف ولم تطلها أيدى اللصوص والقراصنة لذا احتوت كل كنوزها كاملة مكملة بل ان اكتشافها بصرف النظر عما احتوته قد غير وجه التاريخ، وأوضح الكثير من معالم الحضارة المصرية القديمة، وارتقى بعلوم الآثار والمصريات ، لكنى هنا لا أقصد لعنة الفراعنة وليس هذا مكانها الآن، ولا مجال لسرد تفصيلاتها ، رغم أن لها عندي ما قد يفسرها ويفك الكثير من ألغازها وأسرارها، ولكن من خلال رؤيتي الخاصة وربما بحكم مهنتي وعملي كطبيب متخصص في الامراض المعدية ، حيث أراها ترجع إلى وجود أنواع معينة من الفيروسات والبكتريا تعايشت على اجساد الفراعنة ومومياتهم فتنامت و تحورت و ربما تحولت داخل تلك المقابر المحكمة الغلق لـ آلاف السنين ، وعندما تُفتح المقبرة للمرة الأولى قد تهاجم تلك المخلوقات الخفية من البكتيريا والفيروسات مَن يقابلها وقد تكون مميتة وغالبًا ما تكون كذلك ، هذا بالإضافة إلى بعض الغازات المنبعثة من تلك المقابر المغلقة لفترات زمنية طويلة والتي هي عادة عالية السمية ، وهاهى مقبرة توت عنخ امون والتي ظلت مغلقة

آلاف السنوات حتى اكتشافها عام ١٩٢٢م ، لذا فإنه يلزم لفتح تلك المقابر قواعد وأنظمة يعلمها بالطبع كل المختصين والعالمين ببواطن الأمور وكذلك الباحثين ومنقبي الآثار . لكن اللعنة التي أقصدها و أريد أن أحدثكم عنها ليست لعنة الفراعنة بل ما أقصده هو لعنة مصر، وأقصد بلعنتها غضبتها وانتقامها من كل من يسئ إليها أو يظلم أهلها ومصر التي اقصدها هي مصر الأرض والمكان، فتلك الأرض الطيبة كَم ابتلعت في باطنها من عصاة ومتكبرين، وكم أغرقت في بحارها فسقة أفسدوا، وظالمين طغوا، وكَم دُفن في صحرائها من طغاة جبارين، وزادت لعنتها أو غضبتها على كل من اغتروا و ظنوا غافلين أنهم قادرون، وهم لا قدرة ولا قَدْر لهم؛ فكانت نهايتهم المأسوية المحتومة والمعلومة للجميع؛ فقديمًا كلنا يذكر قارون وغروره بكثرة أمواله وثرواته وكيف ابتلعته الأرض المصرية في برهة من الزمن وأمام أعين الجميع غير آسفة عليه، كما أغرقت غير نادمة فرعونها الملك الإله - كما زعم غرورًا وبهتانًا وجهلاً - بالإضافة إلى وزيره هامان وكل جنوده وعتاده، وكانت حقًا آية الكل شاهدها ورأها، وستبقى وتظل ، بل إنى أجذم وفى أيامنا المعاصرة تلك أن هناك البعض كما الفرعون وقارون، قد يكونون أقل من أسلافهم

جبروتًا وغرورًا لكنهم قد يتفوقون معهم في فسادهم وإفسادهم وربما أيضًا تختلف النهايات.

لكن تبقى النتائج نفسها، فالأرض قد لا تبتلعهم كما حدث مع قارون لكنها قطعًا تنكرهم وتلفظهم بكل تأكيد، وقد لا تغرقهم مياهها كما كان مع الفرعون لكن واقعهم يؤكد أنهم غرقى في بحر أطماعهم وجشعهم وأفعالهم السيئة المشينة، بعد أن فسدت ضمائرهم وزممهم وابتليت قلوبهم، ربما لا نعلمهم وعليه نجهل عناوينهم وأماكن سكناهم، لكن المؤكد أنهم موجودون حيث يوجد الظلم والإفساد، لقد أظلموا وأجرموا في حق مصر عامدين ومتعمدين، ناسين أن الإجرام في حقها فجور ما بعده فجور وأن ظلمها هو الطغيان والجبروت، ولا يختلف الوضع كثيرًا مع الغزاة والمعتدين من خارج حدودها، لكنها حينئذ أكثر شراسة وفتكًا بمن أراد أن يدنس ترابها أو يقترب من حدودها أو يدنو حتى من أسوارها فالويل كل الويل لمن أرادها بسوء ولقد رأينا كيف كانت نهاية الحملات الصليبية وما آلت إليه. وتبقى دار ابن لقمان بالمنصورة خير شاهد على نهاية حملاتهم بعد الهزيمة والخسران، وتعتبر تلك الدار من أهم المزارات والمعالم السياحية بالدقهلية، واكتسبت تلك الأهمية والمكانة لأنه تم أسر لويس

التاسع ملك فرنسا و قائد الحملة وإيداعه بها، وهذه الدار هي منزل قاضى البلدة إبراهيم لقمان، ومن هنا جاءت تسميتها بدار ابن لقمان، وهل ننسى أنه وعلى ذات الأرض المصرية تم قهر الحملات البربرية الهمجية لجحافل التتار والتي اجتاحت كل البلاد ونشرت الخراب والدمار، وأتلفت وأبادت كل ما هو مفيد و نافع وهى في طريقها إلى أرض الكنانة هادفين إلى إحكام قبضتهم والسيطرة عليها، طامعين في أن يتمكنوا من خلالها من غزو بقية بلدان المعمورة كونها قلب العالم القديم والحديث وذلك هو قدر مصر ، والأقدار تبقى دائمًا مقدرات لا يد لنا فيها، فقد حباها الله ووهبها كل تلك العبقرية المكانية والمكانة الجغرافية ما جعلها مطمعًا لكل المعتدين عبر كل الأزمنة والتواريخ، نعم.. أراد المغول أن تكون مصر هي المكان الذى منه ينطلقون شمالاً وجنوبًا ، شرقا وغربًا، لتتم لهم السيطرة الكاملة على العالم، ومن ثَم تدميره وزرع الخراب والدمار في كل بقاعه، لكن مصر كانت لهم المقبرة بعد أن تمت هزيمتهم شر هزيمة، وتخليص العالم من شرورهم، وسوء أفعالهم، وتم مطاردة فلولهم والقضاء عليهم وكانت نهايتهم حيث لم تقم لهم قائمة بعدها ابدًا.

وفى العامين كانت بداية النهاية لهتلر وجيوشه ومن معه في محوره على أيدى الحلفاء بعد أن غزا الدنيا فخورًا بما خلَّفه من ملايين القتلى والاشلاء، منتصرًا في كل غزواته وفتوحاته المزعومة لتكون بداية النهاية على أرض الكنانة، حيث تم هزيمة قوات المحور ـ المكونة من ألمانيا وإيطاليا واليابان ـ من قوات التحالف المكونة من انجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وبولندا وغيرهم من الدول، ووصل عدد القتلى إلى ما يقارب الثلاثين ألف منهم أكثر من ثلاثة عشر ألفًا من التحالف و أكثر من خمسة عشر ألفًا من المحور وبقيت مقابرهم تشهد وتؤرخ لتلك المعركة التي لا يمكن أن تُنسى. ورغم أن المصريين لم يشاركوا فيها لا مع المحور أو مع التحالف لكن في أرض مصر كانت مقابرهم، ومازالت تحتوى رفاتهم وهياكلهم ونحن نرحب دومًا كما هي عادتنا بزيارة أبناء وأحفاد من قتلوا لمقابر أجدادهم وذويهم ، لكن تبقى المأساة ما خلفوه لنا نتاج معركتهم والتي لم يكن لنا فيها لا ناقة ولا جمل هو ما تم زرعه من الغام ملأت الارض والمكان خرابًا ودمارًا.

وزادت من المشاكل والأزمات، ومازلنا نعانى ويلاتها ومخاطرها حتى يومنا هذا.

وأخيرًا هل ننسى ما حدث للصهاينة حيث أنهم وفى غفلة من الزمان وغفوة منا تسللوا و احتلوا سيناء كاملة ذلك الجزء الغالي والطاهر من أرض مصر، وبعد فترة قصيرة هي بضع سنوات لا تتجاوز في عددها أصابع اليد الواحدة تم عبور القناة وتدمير عتادهم ومعداتهم وتحطيم بارليفهم المنيع واقتلاع حصونهم وأسرهم أذلة مكسورين وتم قهر جيوشهم والتي زعموا زورًا وبهتانًا واهمين أنها لا تُقهر فرأى العالم - كل العالم - عبر شاشات تلفازه ومن خلال تقارير مراسليه وصحفيه كم ظهروا أذلة منكسرين تفضحهم هيئاتهم وملامحهم وأصوات استغاثتهم وتوسلاتهم واستنجادهم بالآخرين ، وعادت سيناء كاملة إلى أحضان الوطن الأم كما كانت. وفى النهاية إياك ان تأمن أيها الغافل لعنتها وإياك أن تتجاهل غضبتها، وتيقن دومًا ودائمًا أن مصر تكره الغادرين بها وتمقتهم وتحب من يحبها ويحتويها؛ فتحتويه عشقًا وحبًا ويبقى متربعًا على عرش القلوب دائمًا أبدًا.

نسيج واحد

نحن كمصريين من نفس النسيج الحى جئنا، ومن ذات البذور نبتنا وبزغت وتنامت أنسابنا وامتدت وتشعبت جذورنا هنا وهناك.

فأصولنا ـ ومنذ بدء الخليقة ـ واحدة لا فرق بين مسلم منا ومسيحي، أسوانى كان او سكندري، نوبي أو سيناوي أو بحراوي، رجل أو امرأة.

تلكم هي الحقيقة والواقع؛ فالشعب المصري متفرد متميز كما أسلفنا وذكرنا وليس هذا اجتهادًا منى أو سعيًا لتشويه الآخرين مجاملة ومحاباة لشعبي وأبناء وطني لكنه الواقع والحقيقة أن هذا الشعب هو الشعب الوحيد من بين كل تلك الأمم والشعوب في العالم الذي تتطابق ضفائره الجينية وتتوائم جيناته الوراثية، وهو ما تم تأكيده وإثباته بواسطة عالمة الجينات الأمريكية

مارجريت كاندل وفريق بحثها والذى قام بإجراء أبحاثه على الشعب الألماني بداية مدفوعًا بما هو شائع و معروف عن الألمان بأنهم الجنس القوقازي المتميز في كل صفاته وتوصيفاته، عن باقي الأمم والشعوب ذلك الشعب الذى عاش على مر الأزمان والعصور متقوقعًا منغلقًا على نفسه معتزًا بأصوليته ونشأته، لذا كان منطقيًا لفريق البحث أن يبدأ بالألمان، ولكن اللامنطقي هو النتيجة التي وصل إليها والتي تؤكد أن نسبة التطابق الجيني بين الألمان متدنية إلى أقصى درجاتها، وكان المتوقع وحسب رؤية الكثيرين منهم فريق البحث نفسه أن تكون هي النسبة الأعلى بين شعوب العالم قاطبة، لكن لم تكن كذلك على الإطلاق ولم تأتِ الرياح بما تشتهى السفن ، لذا كانت صدمة مارجريت كاندل بعد ان خابت كل التوقعات والتكهنات، لكنها وفريق بحثها ما لبثوا أن عادوا وكرروا أبحاثهم للمرة الثانية وكانت في تلك المرة على الشعب اليهودي الذى يزهو ويفخر بالأصولية والتفرد ويتباهى بنقاء عرقه وتجرده ويعتز دومًا بوحدة مكوناته وعراقة أنسابه منذ وجوده ونشاته فكانت صدمة أخرى هي الثانية لتلك العالمة ومن معها، إذ فوجئت بتدني نسب التطابق الجيني إلى أدني مستوى لها بين

كل الفصائل اليهودية في كل أنحاء العالم ، فها هم يهود أمريكا مثلاً لا تتطابق جيناتهم الوراثية مع أي يهود غيرهم هنا أو هناك لكنها تتطابق مع الأمريكان الذين يخالطونهم ويعايشونهم ويشاركونهم الأرض والوطن، كذا بالنسبة ليهود فرنسا تتطابق وتتوافق جيناتهم مع الفرنسيين وتختلف مع أي يهود آخرين خارج الأرض الفرنسية، وكذلك بالنسبة ليهود روسيا وهولندا وكندا واستراليا ..إلخ ، مما يدل دلالة قاطعة وبكل الصدق والأمانة و اليقين وبالبراهين الواضحة والدلائل الدامغة بأن هذا الشعب اليهودي لا جذور له يفخر ويتباهى بها كما يشيع دائمًا ويزعم ولا أصول ينتمى إليها ولا وحدة ولا رابط ولا هوية يمتلكها. تاهت منهم العناوين وغابت كل الادلة وتفرقت بهم السبل وتناثرت أماكن تجمعاتهم هنا وهناك ، وسيبقى التشرذم عنوانًا لهم ما عاشوا وسيعيشون الشتات في كل ربوع الأرض.
ثم جاء الفريق البحثي بعد ذلك إلى مصر ليُجري أبحاثه على الشعب المصري، ذلك الشعب الذي تعرض في كل تاريخه وعبر الأزمان والعصور قديمًا وحديثًا لغزوات وغارات شتى، وعاشت مصر طوال تاريخها مطمعًا حتى لزائريها وعابري السبيل، وكم بذل الطامعون فيها من جهد وضحوا بالغالي

والنفيس من أجل الوصول إليها كونها المأوى والملاذ، لكن كما أن لمصر الموقع والمكانة والذى يشد الأنظار إليها ويجذب الكثير للعيش فيها فإن لها طبيعتها الخاصة دون غيرها وهى أن كل من يأتيها فإنه حتمًا سيذوب فيها عاجلاً أم آجلاً، فما أسهل أن تتآلف وتجانس مع المصرين ورويدًا رويدًا تصبح مصريًا خالصًا ، شحمًا ولحمًا، ففي عصرنا الحديث ألم يكن ملك مصر محمد على باشا من أصل ألباني ومن بعده أولاده توفيق وسعيد وإسماعيل نهاية بفاروق لكنهم عاشوا مصريين للنخاع، وأفنوا عمرهم في خدمة مصرهم الأرض والوطن هادفين إلى رفعة شانها وعلو مكانتها وسعوا جاهدين في بناء نهضتها الحديثة ووضعها في المكانة اللائقة بها لتكون في مصاف الدول العظمى حتى وإن كان لهم البعض من الأخطاء لكنها لم تكن أبدًا من الخطايا ، ثم ألم يكن نوبار باشا رئيسًا لوزراء مصر وهو أرمني الأصل وهناك عباس محمود العقاد تلك العبقرية الفذة والموهبة النادرة والشاعر والأديب الذى لا يشق له غبار والعلامة البارزة في تاريخ مصر وأدبها الحديث هو من أصل كردى ومن ذات الأصل كان أمير الشعراء أحمد شوقي ويكفيه الإمارة شرفًا والشعر نسبًا والإمام المجدد والملهم المستنير محمد عبده وكذلك

كان الفنان المبدع والكوميديان المتفرد نجيب الريحاني و محمود المليجي وصلاح السعدني وأيضا الفنانة سعاد حسنى و نجاة الصغيرة حيث ان والدهما هو محمد حسنى البابا وهو من أهل الشام لكنه كردى الأصل وللأسف أن الفنانة الراحلة سعاد حسنى كانت نهايتها مأسوية حيث تم قتلها في اغلب الظن ورميها من شرفة منزلها في لندن وقيل أنها انتحرت لمرورها بحالة من الاكتئاب النفسي تمامًا مثلما حدث مع الفنانة زوزو شكيب، وقيل انها انتحرت ومن شرفة منزلها أيضا لمرورها بنفس حالة الاكتئاب التي لازمت سعاد حسنى لكن قتلها كان في جاردن سيتي بالقاهرة لا لندن، وسبقت سعاد حسنى بعشرين عامًا تقريبًا، وللعلم زوزو شكيب وشقيقتها ميمي شكيب من أصل شركسي ووالدهما كان مأمورًا في أحد أقسام الشرطة، وهناك هند رستم وشويكار وليلى فوزى من أصل تركى ،وها هي الأسرة الأباظية ومنها الأديب والمفكر فكرى أباظة والفنان القدير رشدي أباظة أصولهم كردية وبالمناسبة كلمة أباظة هي اسم لسيدة وكانت تلك السيدة أَمَة لدى تلك الأسرة العريقة ومن شدة حب رب الأسرة لها لتعففها وأمانتها وأخلاقها الطيبة أقسم أنه لو رُزق بمولود أو مولودة

سيسميه باسمها عرفانًا بفضلها وحبًا لها فرزقه الله بطفل ذكر فسمَّاه أباظة ليكون هذا الأباظة هو جد الأباظية جميعهم ومنه أخذت تلك الاسرة لقبها ، وأيضًا من الأصول الكردية يأتي الكاتب والصحفي المعروف محمد حسنين هيكل أطال الله عمره وهناك الفنانة الاستعراضية المعروفة نيلي ولبلبة و الطفلة الموهوبة فيروز وميمي جمال وانوشكا جميعهن من أصل أرمني وغيرهن كثيرات، وهناك صاروخان فنان الكاريكاتير المبدع من أرمنيا جاء وتحقق حلم حياته في ان يكون مصريًا في أواخر أيام عمره وأيضا استفان روستى الفنان الموهوب والمشهور بأدواره الكوميدية الشريرة ولزماته الساخرة نمساوي من أم إيطالية حتى قاسم امين محرر المرأة كما لقبوه كانت والدته كردية بل أن هناك العديد والكثير جدًا من الأسر والعائلات المصرية العريقة والمعروفة من أصول وجذور مختلفة لكنهم جميعًا مصريين قلبًا وقالبًا ومصر في قلوبهم، وهي وطنهم الأوحد ولا وطن لهم غيرها فعلى أرضها ولدوا وفيها عاشوا وتربوا بل إن حبهم لهذا البلد وعشقهم لترابه ودفاعهم عنه وما قدموه له يفوق الكثيرين من مدعى الولاء والانتماء، وتلك حقيقة لا تنكر وواقع يشهد به الجميع بلا مزايدة أو مجاملة ودون مواربة أو

محاباة ..، ثم نعود لموضوع الجينات وكاندل وفريق بحثها قبل أن تتوه منا الأفكار وتتبعثر الفكر هنا وهناك حيث كانت الصدمة لمارجريت ولفريقها لكنها الصدمة الإيجابية في هذه المرة والتي جاءت خلاف صدمتيها السابقتين وعكسهما تمامًا، حيث أُصيبت وفريق بحثها بالدهشة البالغة لكنها دهشة يلفها الانبهار ويحوطها كل الزهو والفخار بهذا الشعب العجيب، إذ أثبتت الأبحاث التي أجريت على المصريين من شتى بقاع مصر من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ومن شرقها إلى غربها الأسمر منهم والأبيض، المسلم والمسيحي، الرجل والمرأة أن هذا الشعب هو الشعب الوحيد في العالم الذى تتطابق جيناته الوراثية بنسبة تكاد تصل الى١٠٠٪ وبالتحديد ٩٧٪ ، نعم تفوق هذا الشعب على كل شعوب الدنيا وبفارق متسع شاسع عن أقرب منافسيه ،لا فرق فيه بين المسلم والمسيحي الرجل والمرأة من يسكن قلب الصعيد جنوبًا أو يقطن مدينة الإسكندر في أقصى الشمال، جميعهم لهم نفس التراكيب الوراثية الثابتة والضفائر الجينية المتطابقة ، إذًا ماذا يعنى هذا ؟ بالقطع يعنى أننا من نفس الاصول ومن ذات الجذور ، شعب نقى طاهر من أصله و منبته أصيل متفرد منذ نشأته وتكوينه، شعب

جمعته ووحدته غيبيات منذ آلاف السنين لم يكن الكثير ليدركها إلا في الوقت والزمان الذى نحن فيه وبالتحديد بعد ما جاءتنا نتائج هذا البحث والذى استغرق خمس سنوات من الجهد المضنى والعمل الشاق من جانب فريق العمل البحثي وبالتحديد في الفترة من ١٩٩٤م إلى ١٩٩٩م ، ولقد تم اكتشاف ما اسميناه واطلقنا عليه موروثات او ما يسميه الكثير بالغيبيات ، وثبت ان ذلك الموروث الغيبي هو من وحدنا وألف بيننا منذ القدم وأن لنا الآن أن نعرف أن ذلك الموروث هو نفسه التطابق الجيني المتفرد ، ولقد كان هذا الحدث العلمي مفاجأة ما بعدها مفاجأة بالنسبة لفريق البحث والقائمين عليه كذلك للعديد من المختصين في البحث والتحليل ، لكنه لم يكن بالقطع مفاجأة لنا نحن المصريين ولم تباغتنا أبدًا نتائجه ، فنحن نعلم علمًا يقنيًا أننا أبناء هذا الوطن وحدة واحدة ومنذ ألاف السنين، وأن هناك رابط غيبي مستتر يجمعنا، ربما لم يخطر ببالنا أو يجول بخاطرنا أن يكون هذا الرابط هو التطابق الجينى؛ فنحن لم نكن متبحرين في العلوم الجينية ولم تكن معروفة لنا أو لغيرنا في الحقب الزمنية المنصرمة ، لكننا كنا متأكدين واثقين ومتيقنين على الدوام بأننا نسيج واحد، ربما تأكدنا هذا جاء

من خلال حِس داخلنا سبقت العلوم الجينية ذاتها بأزمان طويلة ،وربما كانت نتاج تأكيدات بديهية ولدت وعاشت معنا ، تراكمت وتنامت عبر قرون وسنوات ،وأيًا كانت تلك الأحاسيس و التأكيدات، وهذه الموروثات و التجليات ، فإن هذا ما تحقق وتلك هي الحقيقة التي تأكدت وبكل مصداقية وأمانة دون مجاملة أو مواربة وعلى أيدى مجموعة منتقاه من علماء وباحثين حياديين مؤتمنين لا يهمهم ولا يشغلهم سوى البحث والعمل البحثي مما ينفى شبهة التحيز و المجاملة، إنها عناية الله تعالى بأرض الكنانة ومن يعيش عليها ، فلقد تجلت الغيبيات الخفية وباتت جلية للجميع وظهرت كل الخفايا وأصبحت مرئية واضحة لكل صاحب بصيرة ، لكل من يدرك ويري ، انها بالقطع العطايا او العطيات، أنها الهبات الربانية والمنح الإلاهية قبل أن تكون الضفائر والصبغة و الجينات. فهل بعد كل ذلك يجوز لنا أن نتفرق شيعًا وأحزابًا بعد أن جمعتنا ووحدتنا يد الله وعنايته؟

بالقطع لن يحدث ذلك ولن يكون، و لن نحيد ما عشنا عن طريق سلكناه وارتضيناه لنا دربًا وسبيلاً.

الفتنة

هل الفتنة مسلم ومسيحي أو مسيحي ومسلم ؟

الإجابة بالقطع لا وألف لا، والأمثلة كثيرة وعديدة وكلها تؤكد ما أقوله، و تفسر ما أعنيه؛ فتلك هي الحقيقة والواقع في مصرنا العزيزة. أقولها بكل الأمانة والموضوعية، بلا مجاملة أومزايدة ونحن لسنا في حاجة لهذه أو تلك لنؤكد واقع نلمسه ونعيشه بل نتعايش معه منذ قرون وعقود خلت. لم تكن فيه الفتنة مسلم ومسيحي ولن تكون بعون من لله وحفظه لهذا البلد الطيب المسالم، بالرغم من أنه في بعض الأحيان نرى جهالات وتأويلات مغلوطة، وأحيانًا تشنج وعصبيات هنا أو هناك وهى تصرفات في غير موضعها، وأقوال فقدت معانيها، فنحن ندرك ونعى أن تلك الأفعال ما هي إلا محاولات يائسة تحركها أيدولوجيات موجهة لكنها تبقى دائمًا لا طائل ولا جدوى من وراءها وان كان لها بعض التداعيات لكنها لا تؤدى إلى

انتكاسات تؤثر فينا ونتأثر بها حتى وإن بقيت تؤرقنا لبعض الوقت ، وحتما لا تؤدى أبدًا إلى تشويه اللحمة والمعاني الوطنية النبيلة والعلاقات الحميمة التي تربطنا ببعضنا البعض، وهناك العديد من الأمثلة التي تؤكد ما أقوله، فها نحن نرى بأم أعيننا البعض من جماهير الكرة المصرية المهوسين وما يفعلونه، فتارة قلة متعصبة من جمهور هذا النادي يصل بها التعصب الأعمى إلى حرق مشجع من جماهير النادي المنافس، وتارة أخرى قلة من الجمهور المنافس يشعل النيران في النادي الآخر، وقد يتعاون الاثنين معًا إذا ما كان هناك حرقًا أو تدميرًا وهو الهدف المشترك دائمًا بينهما، وكانه مقدرًا ألا يتحدا ويتوحدا إلا في الكوارث والنكبات كما حدث في حرقهم لمبنى اتحاد الكرة ، ذلك الاتحاد المنوط به إدارة لعبة كرة القدم في مصر، كل ذلك رأيناه حقيقة وواقع ، فهل سأل هؤلاء المغيبون، أقصد الحارقين من هنا وهناك قبل إضرام النيران في هذا أوذاك عن دين وعقيدة المحروقين قبل إحراقهم، وهل أحرقوا اتحاد اللعبة التي يعشقونها حسب زعمهم وما يرددونه ، لأنه آلمهم منظر الصلبان التي تغطى أبوابه وشرفاته أو لأنهم سمعوا منه صوت الآذان والتكبيرات؛ فأزعجهم ذلك وأرق مخادعهم. بالطبع لم يكن

هذا أو ذاك ، فمبنى اتحاد الكرة لم يكن يعلوه أية مآذن أو منابر ولم يحتوِ على أجراس لكنائس أو صلبان، لكن هدف هؤلاء المغيبين المهوسين وشغلهم الشاغل هو إحداث نوع من البلبلة وإثارة القلاقل، لا يعنيهم عقيدة أو دين مَن أحرقوه، ولا يشغل تفكيرهم هلاله أو صليبه، فالمغيب لا يعيش الواقع ويبقى دومًا أسير أوهامه وعالمه اللحظي ، ومن منا ينسى مأساة بورسعيد وأحداثها الدامية المفجعة ذلك الجرح العميق في قلب الوطن وذاكرته، وهل فتش الجناة حينها عن الضحايا وتبينوا معتقداتهم قبل الفتك بهم ؟ وعبارة السلام ومأساتها وجشع مالكيها أصحاب الزمم المتعفنة النتنة والضمائر الخربة المتهالكة كما هي سفنهم وعباراتهم، تلك الحادثة المؤلمة و الكارثة المدوية والتي لا نزال نذكرها ونتذكرها ولن ننساها ما عشنا ، هل سألت حينها أسماك القرش ووحوش البحر الضارية ضحاياها عما يعتنقون ويعتقدون قبل التهامهم ؟ الإجابة بالطبع لا ، لم تسأل أيًا منهم وما جدوى أن تسألهم وجل همها التهامهم لا يهمها إن كان مدونًا بهوياتهم أو جوازات سفرهم مسلمًا أو مسيحيًا ولا يعنيها ، وهل نيران عدونا اللدود في حروبنا العديدة معه قد أصابت حسين ومحمد وتركت جورج وميلاد ؟ الاجابة:لا وألف

لا، فمن أُصيب كان محمد وجورج، ومَن استشهد كان ميلاد وحسين، ومن حقق نصر أكتوبر والعبور الأربعة مجتمعين، وهل مهد لثورة يناير إلا استشهاد خالد سعيد؟ وهل بقيت واستمرت إلا باستشهاد مينا دانيال؟ وهل حوادث الثأر أو التار والدمار التي مازالت حتى يومنا هذا خاصة في صعيد مصر هي ما بين مسلم ومسيحي ؟ والإجابة أيضا:لا. حتى وإن تصادف وهذا وارد لكنه يبقى الاستثناء النادر حدوثه، وبكل الأسف والأسى في حوادث التحرش الجنسي والذى انتشر في شوارعنا وحوارينا و بات حدوثه حتى على النواصي وفى الميادين وأضحى الضيف الدائم في أعيادنا ومناسبتنا مما جعلنا موضع لسخرية وتندرات الآخرين ، هل يعنى ذلك المتحرش الذى يحكمه اللامنطق في كل تصرفاته وأفعاله أن تكون المتحرش بها مسلمة أو مسيحية؟ الإجابة أيضا: لا وألف لا؛ فكل ما يهمه هو إشباع رغباته الحيوانية وإرضاء نزواته البهيمية؛ فلا وازع ديني أو أخلاقي لديه، ولا تشغله عادات وتقاليد ارتضيناها وتربينا عليها، ولا تؤرقه سلوكياته وتصرفاته الخاطئة ولا تحرك فيه ساكنًا ولا تردعه عواقب خطاياه الجسيمة وأفعاله المشينة،فهوكما اسلفنا يرغب في أن يعيش مغيبًا أسيرًا لتهيؤاته

وأوهامه تتحكم فيه وتحكمه نزواته وشهواته ، وللتحرش عواقبه الاجتماعية الوخيمة كما ان أسبابه في أغلبها اجتماعية أيضًا لذا وجب البحث عن جذور تلك المشكلة ومعرفة أسبابها، ومن ثم نحاول جاهدين استأصلها وتجنب ما يترتب عليها من عواقب وانتكاسات، كما أن هناك من الحوادث المؤلمة البشعة والتي أدمت قلوب المصريين جميعهم مسلمين ومسيحين، كما في حادثة بنى مزارالمعروفة والتي كان السفاح فيها مسلمًا والضحايا جميعهم من المسلمين و في حادثة بنى سويف المأسوية والتي جاءت بعد الحادثة الاولى بأعوام قليلة كان سفاح تلك المرة مسيحيا وضحاياه جميعهم من المسيحين فما ذنب الضحايا مسلمين ومسيحين وما هو جرمهم الذى ارتكبوه. إنهم ابرياء لا ذنب لهم ولا جرم اقترفوه، ثم هل اعترف القاتل لضحاياه في الحادثتين المأسويتين قبل الإجهاز عليهم وقتلهم بأنه جاء ليسلبهم حياتهم بسبب دياناتهم ومعتقداتهم؟ أبدًا بالقطع لم يحدث هذا؛ فالقاتل في الحالتين سفاح ومن مصاصي الدماء لا يتبع سوى هوى نفسه وجل همه هو إشباع غريزته الشاذة ألا وهى تلذذه بدماء ضحاياه لا يهمه و لا يشغل تفكيره ولو للحظة من تكون الضحية، ولا تحرك فيه ساكنًا توسلاتها واستعطافها

له، ولا يفكر بالقطع في عواقب فعلته المشينة وما يترتب على فداحة جرمه وأفعاله ، لكن ولله الحمد أن هؤلاء وإن كانوا موجودين لكنهم قلة لا يمثلون بأي حال من الأحوال ظاهرة ينبغي لنا أن نناقشها شرحًا وتوصيفًا، لكن الأخطر في أيامنا تلك والأكثرتأثيرًا هي بعض الإشاعات المغرضة والتي تنبعث وتنتشر هنا وهناك و تملأ الأجواء وتلوث الأثيرو الهواء قبل تلويث آذان سامعيها وتنطلق إلى كل الأماكن والسكنات وتدخل بلا استئذان الكثير من القصور والبيوتات وتغزو الحوارى والشوارع وأحيانًا على الأرصفة و الطرقات تباع وتشترى وتزداد أعداد مروجيها يومًا بعد يوم ، بل لها مواسم وأعياد تنمو وتزدهر فيها وقد تخبو وتنحصر في بعض الأوقات، وفى الكثير من الأحوال تصبح الإشاعة فتنة وبذات الهوية والمنطق فتراها تسرى وتمرق وتنتشر هنا وهناك، وكم من إشاعات قد فتنت وفرقت وكم من الفتن قد شاعت وسرت كالنار في الهشيم.

فبئس الفتنة ومختلقها وكل من ساهم في شيوعها، فإن كانت الإشاعات كما الإشعاعات تقتل وتصيب في أحيان كثيرة، فإن الفتن أشد خطرًا وأعظم جرمًا وفداحة كما جاء في القرآن الكريم توصيفها وتعريفها بأنها أشد من القتل بشاعة وترويعًا،

ومـروج الإشـاعة ومحـدث الفتنـة لا يتحـكم فيـه ولا يحركـه سـوى عقـله الضـال وأفـكاره الشـاذة المريضـة ،إن هـؤلاء هم خفافيـش الظـلام والـذين جبلـوا عـلى الخسـة والنـذالة إنهـم قـد يفوقـون شـياطين الجـن في بعـض أفعالهـم الدنيئـة وأفكارهم الخبيثـة فهـم لا دين ولا خـلاق لهـم، وهـا نحـن نرى أن هـؤلاء الخفافيـش وصانـعي الفتنـة ومـروجي الإشـاعة يجـدون ويسـعون ليـل نهـار في جـذب الكثير وخـداع العديـد مـن العـوام وقـد ينجحـون في شـيطنة أفـكار البعـض منهم،ومـن ثم يسـهل عليهـم توجيههـم مما يـؤدى إلى حماقـات غـير مـبررة واندفـاع لاعقلانيـة فيـه قـد تحـدث عـلى إثره المشـكلة والـتي قـد تصـل إلى الكارثـة، وعندهـا تكـون النـار أكـبر بكثـير ممـن أشـعلوها وهي كذلـك دائمًـا، لكنهـا عنايـة الله ورحمته؛فتلـك الأرض محفوظـة محميـة وسـتبقى آمنـة مطمئنـة دومًـا ودائمًـا بإذنـه تعـالى .

أم الدنيا

لماذا يطلقون على مصر أم الدنيا؟ هل لحضارتها والتي غطت على كل الحضارات والممالك، هل لتاريخها المحفور في وجدان العالم وضمير الأمم؛ذلك التاريخ المصري العتيق؟ وهل هي كذلك بحكم موقعها الجغرافي المتميز؟ هل بسبب نهرها الأطول والأعظم وبحريها الأبيض والأحمر؟ هل لأسباب تتعلق بأهلها وساكني أرضها وما يملكونه من مساحات شاسعة من العاطفة والأحاسيس ومخزون المشاعر والتراحم الذى يملأ قلوبهم ويشكل وجدانهم ويحفظ لهم المكانة والكيان؟ قد يكون السبب هو كل ما ذكرته أو حتى البعض منه. لكنى أود أن أسوق هنا رؤيتي وربما تكون تلك الرؤية هي مردود لفكرة قد طرأت لي صدفة وقدرًا فاحتوتني دون سابق انذار .

فها أنا أحدثكم مدللاً ومبرهنًا وأسوق لكم واقع و حقيقة ربما لا يدركها إلا القليل. ففي مصرنا ومنذ القدم تجسدت الأمومة

بكل معانيها وعاشت فوق أرضنا ما لم تعشه في أي مكان على ظهر الخليقة، حتى في الأساطير والملاحم القديمة كان للأمومة النصيب الاكبر. وها هي قصة إيزيس وأوزوريس تحكى لنا كَمَ كان حب إيزيس لزوجها أوزوريس، وبذلها الغالي والنفيس من أجل تجميع أشلائه المقطعة والموزعة في كل الأقاليم المصرية بعد أن غدر به أخوه الحسود ست وقتله ثم ما لبث أن قطَّع جسده بعد ذلك إلى أربعة عشر قطعة ورمى بها في الصحاري والأحراش؛ ليتخلص منه إلى الأبد لكن مكنون الحب ومخزون العشق والهوى لدى إيزيس الزوجة كان دافعها القوى في أن تسترد وتعيد زوجها إلى الحياة مرة أخرى، مستعينة بالسحر والكهنوت، بل وتنجب منه إبنهما الوحيد حورس وترعاه ليلها ونهارها حتى أصبح ملكًا متوجًا بعد أن حارب الطاغية والطاغوت ست وقضى عليه وعلى من عاونوه في فعلته المشينة والنكراء، تلك القصة بكل محتوياتها الخيالية والأسطورية لها من الدلالات والمعاني الكثير تملأُها إسقاطات ذات مغزى تصب جميعها في اتجاه واحد وهو أن نهر الحب الجارف في قلوب المصريات منذ الأزل عاش ومازال حتى اليوم مستمرًا في سريانه وتدفقه، وبتلك الأمومة الطاغية والحب الجارف

أعادت إيزيس زوجها، وربَّت ورعت وليدها ولا فروقات لديها إن كان المحبوب زوجًا أو ابنًا؛ فالمرأة المصرية وبطبيعة تكوينها ونشأتها هي أم لزوجها قبل أن تكون له الزوجة والسكن، ورغم أن قصة إيزيس وأوزوريس لم نعرف عنها إلا القليل إلا أنها من أروع الملاحم والأساطير وإبدعها بل ترقى إلى مرتبة التقديس واعتبرها المصريون القدماء كذلك، وهو ما جعلهم يمنعون هيرودوت من مشاهدتها عندما جسدوها في معابدهم، لكنه ألح عليهم كثيرًا فوافقوا وسمحوا له بالمشاهدة مشترطتين أن لا يكتب عنها أو يؤرخ لها ووافق على ذلك ، لكن فضوله كمدون ومؤرخ دفعه إلى أن يكتب عنها قليل القليل هو كل ما وصلنا من تلك الأسطورة ، وما بين شح المؤرخ هيرودوت فيما كتب وأرَّخ نتيجة عهد قطعه على نفسه وإن لم يوفه كاملاً، وأخطاء عديدة وقع فيها شامبليون وإن لم ترقَ إلى كونها من الخطايا في فك رموز حجر رشيد وترجمة مدلولاته ، يبقى الجزء الأكبر من تلك الملحمة والأسطورة هو من الخبايا والأسرار شأنها في ذلك كشأن كل التاريخ المصري القديم، والذى غاب عنا الكثير من تفصيلاته ، لكن كل التقدير والعرفان لهيرودوت وشامبليون فإن لهما الفضل الأكبر في معرفتنا لهذا التاريخ حتى وإن عرفناه

مشوشًا في بعض فصوله وأبوابه و مشوهًا في البعض الآخر، وإن انتقلنا من عالم الأسطورة والخيال إلى أرض الواقع والحقائق المجردة؛ فتلك قصة يوكابد أم موسى ولهفتها وخوفها عندما وضعت مولودها وحين ألقته في اليم وحين عادت إليه مرة أخرى ترضعه وتحتضنه داخل قصر الفرعون.

تخيل عزيزي القارئ كل تلك المشاعر والأحاسيس.. إنها الأمومة بكل معانيها ثم تذكر الأم الأخرى آسيا امرأة فرعون وهى من أحبت ورعت ذلك المولود في بيتها وأقنعت الفرعون الطاغية والجبروت بتبنيه؛ فأصبح مصدر سعادتها و قرة عين لها، ولا ننسى أخت موسى مريم الطفلة الصغيرة والتي راقبت وتتبعت أخيها الرضيع ثم تسللت إلى بيت الفرعون وأخبرتهم بمن ترضعه عندما رفض الطفل كل المرضعات وهى غير مبالية بما ينالها من عقاب وبطش إن تم اكتشاف أمرها، لكن حبها لأخيها كان دافعها لأن تموت من أجل سلامته وإنقاذه ، وتلك أمومة مبكرة في الام الطفلة والأخت الشقيقة ، وها هي مصر تحتضن أم فَرَّت بابنها خوفًا عليه ولم يكن أي ابن، ولم تكن الأم كباقي الأمهات فالابن كان يسوع والأم كانت العذراء ، الأم التي قطعت آلاف الأميال من بيت لحم بفلسطين إلى أقصى جنوب مصر

غير مبالية. كل ذلك من أجل طفلها؛ فتلك أمومة ما بعدها أمومة. وقبلهن كانت هاجر المصرية التي سعت وهرولت بين جبلين ذهابًا وإيابًا عدة مرات ورغم شدة القيظ والحرارة لم تبالِ وظلَّت تدعو ربها متلهفة مرتعدة لا من أجل نفسها ولكن من أجل قطرة ماء تروي بها ظمأ إسماعيل نبي الله ورضيعها فتدفق الماء بدعواها ومن أجل اسماعيل وكانت حقًا معجزة. وهل ننسى مارية ابنة المنيا والتي أصبحت من أمهات المؤمنين بعد زواجها من نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأنجبت له ثالث أبنائه من الذكور ابراهيم والذي مات صغيرًا ونعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه كل الصحابة. فالأمومة بكل مكوناتها عاشت و تجسدت على أرض مصر، وكذلك ارتبطت وحصريًا بنسائها وبناتها في كل مكان ذهبن إليه، ولك أن تعلم قارئي العزيز أن الأم والأمومة لا ترتبط بمن أنجبت أو تتعلق بمن حملت وأرضعت؛ فالأمومة في مصرنا غريزة طبعت وغرست في الجينات المصرية لتتوارثها البنات والنساء جيلاً بعد جيل فنراها تتجلى بكل المشاعر والمعاني في أم موسى وهى الأم التي أنجبت وتظهر جلية واضحة يملأها الحنان والعطف في السيدة آسيا زوجة الفرعون وهى الأم المتبنية والتي لم تلد ولم ترضع ،

وانظر الى الطفلة المصرية الصغيرة والتي لم يتعدَّ عمرها أصابع اليد الواحدة وهى تحتضن عروستها وتحنوعليها تداعبها وتحاكيها ، إنها الفطرة والغريزة لا علاقة لها بحمل أو إرضاع وهانحن نرى ونشاهد على شاشات السينما المصرية أن أشهر من أبدعن في تجسيد دور الأم والأمومة مثل فردوس محمد وأمينة رزق وشادية وسناء جميل جميعهن لم ينجبن بل إن بعضهن لم يتزوجن مطلقًا كالسيدة أمينة رزق رحمة الله عليها، وكلنا نذكر السيدة صفية زغلول ودورها البارز في الدفاع عن المصريين وحقوقهم ومناصرة قضاياهم وإسهاماتها التنويرية وآراءها المستنيرة إبان ثورة ١٩ وما بعدها حتى لقبت بأم المصريين ولك أن تعلم أن تلك السيدة أم المصريين جميعهم لم تنجب رغم أن كل مَن هم على أرض الكنانة الآن ابناءًا و أحفادًا لها ، فهل ترى عزيزي القارئ بعد كل ذلك من غرابة في أن تكون مصر أم الدنيا كل الدنيا حتى وإن لم تنجب كل من فيها.

البعاد

هل حقًا أن مَن يحبها ويذوب عشقًا فيها هو فقط من يعيش بعيدًا عنها، وأن عشقه لها وتعلقه بها يعود إلى أنه عاش محرومًا من عطفها وجل حنانها فتراه يجذبه الحنين وتزداد آماله في الرجوع إليها، بل تزيده هموم غربته وآلام بعاده أملاً في لقاء محبوبته؛ فيعيش متيمًا بحبها ليله ونهاره ويهيم شوقًا بها أينما كان وأينما وجد وتبقى صورتها مرسومة في مخيلته بكل ما تحتويه من الوفاء والمعاني الجميلة، بلا أية تشويهات أو خلفيات تخلو من الإنصاف والعرفان، حتى إذا ما عاد مرة أخرى إليها تراه قد فتر حبه وغاب شوقه؟ وهل حقًا أن مَن يسكنها ويعيش فيها لا يسكنه ودًا لها؛ فلا هيام أو اشتياق ولا عشق أو مديح أو غزل و قد يصل به الحال إلى أن يمل تلك المحبوبة ويزهدها بل يشكو للقاصي والداني جبروتها وظلمها ويستمر في وصفه وتوصيفه لما يلقاه من نكران وجحود من جانبها ويتمنى قرب

فراقها ويتعجل الرحيل ليعود من حيث أتى؟ للأسف هناك بعض الرؤى أو الروايات ـ وهى لا تعبر إلا عن قائلها وراويها ـ تزعم أن كل ما يشاع عن حب مصرومكانتها وقدرها في القلوب مرتبط بمن عاش بعيدًا عنها؛ فالبعاد حسب رؤياهم دائمًا ما يستر عورات المحبوب و يغمض العيون عن كل ما يعيبه أو يشينه ويلهب المشاعر ويزيد الانتماء كما أن الفراق إن طال عادة ما تحوطه الآمال بقرب اللقاء حتى إذا ما قدر لنا أن نعود إليها ونلتقيها يفتر حبنا لها، وينخفض مُنْحَنَاه، وتشيخ داخلنا العواطف، وتبدأ الأحاسيس والمشاعر خطوات الرحيل ، ويدلل أصحاب ذلك الرأي كذبًا وزورًا بما يستحضرونه ويسترجعونه من خبايا عقولهم الباطنة و مجاهل اللاشعور لديهم بأحداث من تراثنا العربي لا وجه فيها للتشابه أو المقارنة فنراهم مستشهدين باثنين من الفوارس وفرسان الكلمة، ومن أشهر أهل العشق والهوى أحبًا وعشقًا وهامًا في البعاد والفراق فأبدعا وتركا لنا تراثًا من الهوى والشوق والهيام صنعه وأعلى بنيانه فراقهما لمن أحبا وعشقا ، وبالطبع كل ذلك الحب والعشق وحسب زعم المرتائين كان سيزول وينتهى لو عاد كل منهما والتقى حبيبته ، وهو محض افتراء وزعم باطل جملة

وتفصيلاً، فها هو عنترة ابن شداد والذى عاش أكثر من ثمانين عامًا حسب بعض الروايات ذلك الفارس المغوار الصنديد، والشاعر رقيق الشعور مرهف الاحساس، المتمكن من الشعر كل الشعر والمتحكم في بحوره وقوافيه حتى أنه من أشهر فرسان الكلمة ومن أصحاب المعلقات المعدودين قضى كل عمره متيمًا بحب عبلة وتدفقت أشعاره تتغنى بها وتتغزل فيها وحتى وفاته و الآخر هو قيس ابن الملوح، والذى أبدع شعرًا وغزلاً وامتلأ شوقًا وحبًا وذاب عشقًا وولهًا في ليلى وهام على وجهه يتغنى بها وينشدها في كل قصائده وأشعاره، وأصبح مجنونًا بحبها وأحب خبله هذا وجنونه حبًا ما بعده حب، لأنه به تقرَّبَ وارتبطَ بالمحبوبة حيث لُقِّبَ بمجنون ليلى، وعندما كانوا ينادونه بها يملأه ذلك فخرًا وزهوًا، ويزيده أملاً في لقياها ٠هل كل هذا الحب والهيام والعشق والوله بين عنترة وعبلة وقيس وليلى لأن عنترة وقيس لم يتزوجا بعبلة وليلى وعاشا الفراق والبعاد بكل مآسيه ونوائبه؛ فأضحت صورة المحبوبة بالنسبة لهما أملاً، وظلت غاية تراود أحلامهماوهدفًا يبتغيانه حتى ماتا؟!

وأجيب على هؤلاء وما يزعمونه: هل لو تزوج عنتر بعبلة وقيس بليلى كان الحب سيموت ويتم تأبينه والشعر سينتهى وتجف

منابعة وبحوره ، من ادراكم و من أخبركم ؟ فالواقع يؤكد ويبرهن أن القرب من الحبيب يزيد الحب وينميه ويشعل جذوة لهيبه ويظهر جبروته وقوته ، فأنا أرى أنه لو تزوج عنترة بعبلة لزادت معلقاته معلقات، ولغطت أشعاره ومدونات عشقه وصفحات غزله على كل الأشعار والكتابات ناهيك عن فروسيته وفراسته ونبله وإقدامه.

أما مع قيس؛ فإني أجزم أنه لو تزوج بليلى لتغيرت بزواجه هذا كل المعالم والمكانات ، ولزادت وتنامت أرض العشق و الهوى وتلاشت كل الأهواء والأحقاد، وانتشرت مساحات شاسعة من الأحلام و الأماني وامتلأت الدنيا حبًا وأشواقًا وأضحت الصحارى والأحراش بساتين للمحبة والهيام . أما من ناحية أن مَن عاش على أرضها يبغضها فبئس القائل والمقولة. وهل تم نفى سعد زغلول إلى مالطة إبان ثورة ١٩١٩م ومن قبله بما يقرب من أربعين عامًا عرابي والنديم ومحمود سامى البارودي إلى سيلان ليحسوا مكانة مصر ويستشعروا عظمتها التي لم يشعروا بها ولم يحسوها طوال سنين عمرهم التي عاشوها في أرض الكنانة ؟ لا والله لم تكن أبدًا تلك هي الحقيقة لكن المؤكد أن حبهم لبلدهم وعشقهم لترابها وارتباطهم بها والدفاع عنها كان هو

دافع خصومهم الوحيد للتخلص منهم وإبعادهم بنفيهم خارج البلاد ، وفى النهاية فأنا ممن عاشوا على أرضها عمرًا طويلاً وممن تغرب بعيدًا عنها سنوات وسنوات لكني أحببتها من كل قلبي وأنا أعيش فوق ترابها أتنسم هواها وتأويني أحضانها وازداد حبى لها عندما ابتعدت عنها. وكان حبى الأكبر والذى لا يضاهيه أو يدانيه حب عندما عدت إليها مرة أخرى ، فتلك البلاد قد سكنتني قبل أن أسكنها، وعاشت تأويني قبل أن اعيش عليها كل أيام عمرى وسنواته. لم تبخل يومًا ولم تضن علىَّ، و ستبقى هي الملجأ والمأوى. فما أجمل أن تحب بلدًا هي بلدك وما أروع أن تعشق وطنًا هو وطنك!

لكن جل فخرك واعتزازك أن تكون مصر هي هذا البلد وتبقى دائما الوطن والملاذ .

خفة الظل

خفة الظل هي مرآة تعكس حالة وتنبئ عن مكنون ومكونات تكمن وتتوارى داخلنا، تنامت وتعايشت معنا بل أصبحت لازمة لنا، وصفة تميزنا دون غيرنا، وكما هو معروف أن ما نسميه نحن خفة الظل هو نفسه خفة الدم رغم الفارق والفروقات في الألوان والمضامين ما بين الظلال والدماء ، و ربما السر في نعت المصريين بتلك الصفة يعود لسرعة البديهة والفطنة وربما للحكمة في ردود أفعالهم بالإضافة إلى عبقرية تدبيرهم وتصريفهم للأمور دون مزايدة أو تكلُّف. وقد تكون هي البساطة والكياسة دون قناع أو ستار يُخفي ويواري، لكن المؤكد أن المصريين هم الأشهر في التنكيت والتفكه وعلى مر تاريخهم.ومعروف عنهم قفشاتهم وتعليقاتهم الساخرة في كل المواقف والاحداث. ولم يأتِ كل ذلك من فراغ فهو نتاج ضغوطات و منغصات تراكمت وتفاعلت وعبر سنين وأزمان مضت وانقضت؛ فأخرجت أجمل

ما فينا دون أدنى مبالغة أو مزايدة، بل بكل الوضوح والشفافية و بتلقائية عفوية وليدة اللحظة والموقف وابنة الصدفة والأقدار. والنكتة في أساسها وفي كل أصولها ومكوناتها مادة أدبية حتى وإن تم ضغطها واختصارها وهى ذو طبيعة نقدية ساخرة وفي أحيان كثيرة هي نوع من أنواع التعبير عن مكنون ومكونات اللاشعور وهى تعكس حالة المزاج الشعبي وتظهر أفكارًا استترت وتوارت بداخلنا ، وقد يغلب على النكتة الطابع السياسي أو الاجتماعي وأحيانًا الديني، وللنكتة دورها في تنشيط العقول، وزيادة مساحات الإبداع والتفكر، والنكتة المصرية بيضاء بطبيعتها، أي لا تؤدى إلى مشاكل ولا تختلق أزمات، ولا تؤسس لتعصب أو ازدراء هنا أو هناك، فهي دائمًا تتماشى وتتواكب مع المزاج الشعبي، وتتأقلم وتتوائم قبل أن تسخر وتنتقد كل تقلباته وهفواته، فتراها في أصعب المواقف وأشد المحن والأزمات و نعيشها في أزمان السعادة والأفراح، ولقد كان الرئيس السادات ـ رحمة الله عليه ـ ممن يحبون سماع النكتة، ويهتم بها كونها تعبر عن حالة مزاجية يعيشها الشعب، تظهر الكثير من الخفايا والخبايا المستترة وتحدد اتجاهات الشارع المصري وتوجهاته، وقد وصلت النكتة في عهده زروتها وشاعت وانتشرت هنا وهناك

ربما ساعد على ذلك المناخ السائد حينها، والذى امتلأ واكتظ بأزماته ومعضلاته والنكتة كما نعرفها ابنة موقف ووليدة أزمة، وكان ذلك في أعقاب الانفتاح الاقتصادي، وما خلفه من آثار، ثم ما أحاط اتفاقية كامب ديفيد من القيل والقال، والمؤيدين والمعارضين لها ،أضف إلى ذلك الانتفاضة الشعبية في ١٧ و١٨ يناير، لكن يبقي السبب الرئيسي في رأي الكثيرين يعود إلى ارتفاع سقف الحريات وعدم تكميم الأفواه في عهده مقارنة بمن سبقوه أو اللاحقين له، ويُقال أن ملف النكتة في عهد السادات كان في يد الكاتب الصحفي والأديب الألمعي ابن المنصورة أنيس منصور يعاونه الفنان الكوميدي و المسرحي الساخر فايز حلاوة زوج الفنانة تحية كاريوكا والإعلامية الشهيرة فريال صالح، بل ان المنولجست وصاروخ النكتة المعروف حمادة سلطان كان من المقربين جدًا للسادات، وكان يزور الرئيس بصفة دورية في بيته بناءً على طلب من الرئيس نفسه؛ ليتعرف منه على أحدث وآخر النكات خاصة السياسية منها، خصوصًا في وقت الأزمات والاضطرابات كما اسلفنا، ويرجع ولع السادات بالنكات إلى كونه ابن بلد كما يطلقون عليه كما لا يختلف اثنان علي سعة أفقه وذكائه وتمتعه بالفطنة والفراسة ، بالإضافة إلى خفة ظله التي

كان يتمتع بها دون غيره من الرؤساء شأنه في ذلك كما غالبية المصرين بالإضافة وكما أسلفنا أنه ومن خلال النكتة يستشف ما يدور ويحدث وما يحرك الأحداث بالشارع المصري، و كان يتم تجميع النكات السياسية أولاً بأول وتحليلها ورصد ما ترنو وتهدف إليه وذلك من خلال المخابرات العامة، وبالفعل يمكننا أن نقول أن النكتة في زمن السادات كان لها دورها البارز وتأثيرها الفاعل في البعض من القرارات السياسية التي يتم اتخاذها، وعلى النقيض تمامًا كانت النكتة في العهد السابق للسادات وهو عهد عبد الناصر خاصة السياسية منها حيث تم منعها ، ربما بسبب أن سخريتها قد طالت الجيش المصري إبان نكسة يونيو ١٩٦٧وما بعدها لذا كان لابد من إجراء يحافظ على هيبة القوات المسلحة ويحفظ لها مكانتها ، والتي لم تلبث أن عادت إليها مرة أخرى في أعقاب انتصار اكتوبر ١٩٧٣ بل أعادت القوات المسلحة لمصر العزة والكرامة، ولكل المصرين الكبرياء والشموخ، ويشاع أن مصطفى أمين كان هو المسئول عن ملف النكتة في عهد عبد الناصر لكنه وبكل تأكيد لم يكن له يد في قرار منعها ، وفى عهد مبارك لم يعرف عنه إذا كان قد أحب النكتة وسماعها واستفاد منها كما السادات أو حاول منعها

كما عبد الناصر، لكن المؤكد أنه لم يكن هذا ولا ذاك ، ربما لأنه كان ابن نكتة ونحن لم نكن ندري!. لذا كان لابد ومن الوجب عليه ان يحفظ لست الحبايب قدرها ومكانتها فلا هو يسمعها ولا هو يمنعها ، وربما عاش معه الشعب نكتة كبيرة طوال كل مدة حكمه

واكتشف بعد مرور ٣٠ سنة ان تلك النكتة لم تكن إلا كابوسًا جسم على الصدور ثلاثة عقود من الزمان، وبعد كل تلك الفترة الطويلة، لم يكن أمام هذا الشعب المسكين ولا بوسعه سوى التبكيت لا التنكيت، وربما بسبب أن الرؤساء السابقين له كان لهم لازماتهم الخاصة بهم، ويتمتعون بالكاريزما التي تميزهم دون غيرهم، وصاحبنا وبكل تأكيد لم يكن عنده تلك الكاريزما وبالطبع ليس له أية لازمة!، لكن حتى لا نظلم الرجل ونبخسه حقه، فالحق يُقال أنه في بعض الأحيان كان له قفشاته وتندراته العفوية المدوية ، كما حدث عندما زار أحد المصانع وسأل إحدى العاملات قائلاً إنتى مدام ولا آنسة؟ فأجابته آنسة يا افندم؛ فبادر بسؤالها مرة اخرى: وعندك كم عيل؟ فلم ترد الفتاة وصمتت!

أعتقد أن صمتها مرجعه دهشتها واستغرابها، بل قل صدمتها من سؤاله، وربما أن لديها العديد من البنين والبنات وخشيت الحسد على اولادها!، فكم هو غريب وعجيب هذا المصري فها هو في جل همه و أوقات يأسه وقنوطه نراه يبتكر إبداعًا هو من روائع أفكاره، وتظهر تجلياته واضحة جلية فتخرج نكاته لاذعة ساخرة تنتقد القاصي والداني لا يرهبه سلطان أوحاكم، لا يثنيه المنصب والجاه لا يتحكم فيه ولا يحكمه سوى ضميره المجتمعي ، فتسمع منه سيول تندراته تجرى وتدفق أنهار نكاته لا يتوقف سرايانها، وهو لا يلجأ أبدًا إلى أعذار وحجج قد تفتح له الأبواب وتساعده في الهروب والفرار بل تراه مواجهًا لا يخشى ولا يهاب مهما كان حجم المعوقات وجسامة التحديات و يأتي دومًا بأفكار مبتكرة خلاقة تساعده في الخروج من أزماته ، لا يدع الفرصة لهفوات تلهيه ولا تشغله كما تشغل غيره نزوات ولا تحنيه ما عاش الكبوات والمصاعب والتحديات ، وتبقى البسمة دومًا تكسو الوجوه وتوارى كل الخلفيات وتغلق الدهاليز والطرقات؛ فلا أحد يدرى إن كان ما تخفيه وتواريه بؤسًا وشقاءً أم السعادة والانبساط، ولا يمكن لأى من كان مهما أوتى من علم و فراسة ومهما حظى من حصافة وبيان أن يكون

لديه القدرة على التمييز بين هذه وتلك ، فخفة الظل قد يكون مبعثها قنوط وشقاء وقد تكون عنوانًا لفيض من السعادة والامتنان؛ فلا أحد يستطيع الوصول إلى الخلفيات والمرور في دهاليزها ولا يوجد من يجرؤ أن يتبحر في أدغال البؤس والشقاء أو في كواليس السعادة والانشراح فيدرك تلك المنابع وأصولها ويصل إلى روافدها هنا وهناك، إنها عبقرية المصري ومبتكراته الخلاقة، إنها الإرادة والتحدي، وسيبقى للنكتة دومًا مسلكها النقدي الفاعل ودورها الساخر، سياسية كانت أم اجتماعية أو حتى دينية. وإن ذهبنا لنسرد جزءًا من النكات المرتبطة بمصر والمصريين فإننا نحتاج إلى مجلدات ومجلدات، ولا مكان هنا لسردها وبالطبع ليس هذا موضوعنا ، لكن على سبيل المثال نكتفى ببعض النكات وسامحوني إن كانت قديمة.

يُحكى أن رجلاً على فراش الموت جمع أولاده يريد أن يوصيهم بالوحدة والاتحاد؛ فأعطى أحدهم عصاة فكسرها ثم أعطاه عشرة من العصى مجتمعين فكسرهم فأعطاه مائة فكسرهم أيضا و بضربة واحدة عندها نظر الرجل إلى باقي أبناءه وقال لهم أنا كده مطمئن طول ممعاكم البغل ده ومات الرجل بعدها مباشرة.

وأحدهما يسأل: هل الحج فرض ولا سنة فأجابه الآخر: لا ده ولا ده، الحج يا قرعة يا سياحي.

وأخرى..

واحد فشار اسمه عوني يحكى لنا فيقول انه سافر أمريكا وقابل أوباما وتأبطه ومشى به في شوارع نيويورك فإذا الناس هناك جميعها تسأل: هوه مين اللي ماشي مع عوني ده؟

وأخرى..

يُحكى أن زوجًا ماتت زوجته وأثناء تشييع جثمانها رآه أحدهم مبتسمًا فسأله: لماذا تبتسم وزوجتك قد ماتت؟

فأجاب الزوج: بقالي معاها خمسة وعشرين سنة أول مرة أعرف هيه رايحة فين؟

وأخرى..

يُحكى أن.. واحد مسكين كان نايم على الرصيف تحت شباك عمارة مفتوح ، لما الدنيا بردت عليه بالليل قام قفله.

ونكتة أخرى..

جماعة بلدياتنا كانوا بيحفروا أساس عمارة فجأة لقيوا فانوس سحري مصدى دعكه أحدهم صدفة خرج منه حارسه الجنى وقال للمجموعة: شبيك لبيك اطلبوا وحنفذ لكوا طلباتكوا على طول.

فطلب منه الجميع طريق اسفلت يربط بين بلدهم وبين امريكا فأجاب العفريت قائلاً: يا جماعة ده طلب صعب شويتين معندكوش حاجة أخف شوية.

ردت عليه المجموعة قائلة: خلاص يا سيدى بلاش الطريق ياريت تخلينا نفهم زى بقية الناس.

فرد العفريت قائلاً بقولكوا إيه.. انتوا عايزين الطريق رايح جاى ولا رايح بس.

وأغلب النكات عندنا تنصب على أبناء جنوب الوادي، وهى لا تُسئ أبدًا إليهم بل تلك النكات تبين وتظهر أصالة معدنهم وطهارة منبتهم، وصدق أقوالهم، وحسن تصريفهم، وتدبيرهم للأمور، حيث لا ميوعة ولا خنوع لديهم ودائمًا بين صفوفهم تجد أطيب الرجال وأشجعهم، تجمعهم شيم الوفاء والإقدام. أضف إلى ذلك الصبر والحكمة، لم يكونوا يومًا جُفاة غِلاظ

بالـرغم مـن أنـه في كل مواقفهـم تظهـر القـوة والصرامـة لكنهـا في الحق، والحق فقط وتلك طبائع الأفذاذ الذين لا يعرفون المواربة والرياء ويكرهون النفاق والمزايدة ولا تجد بينهم مرائي أو مخادع أفاق أبدًا، نعم هناك من يحيد وعلى غير ذات الدرب يسير شأنه في ذلك كشأن كل قاعدة لابد لها من استثناء ، لكن ندرة حدوث الاستثناءات تجعلها والعدم سواء لا محسوبة ولا معدودة، إنهم حقا أحفاد الفراعنة، أحفاد رجال صنعوا حضارة سادت العالم، وعلَّمت الممالك والشعوب وبنوا أمجادًا نزهو ونتفاخر بها حتى يومنا هذا ويكفى أن تعلم أن أكثر من ثلثي آثار العالم في جنوب مصر أي في صعيدها وتلك الآثار هي نتاج حضارات ازدهرت وتنامت في جنوب وادينا، وخلاصة أمجاد شهدت لها الدنيا أنها أمجاد الفراعنة أجدادنا، والتي سنظل نفخر ونتباهى بها عبر كل الأزمان والعصور، وستبقى وتعيش تحكى تاريخًا وتروى واقعًا ساد العالم، وعلَّم كل قاطنيه.

وعادةً لا ترى الصعايدة ينفرون أو حتى يمتعضون من سماع نكتة قد تذمهم ولا تمدحهم، بل تراهم يضحكون من أعماق قلوبهم مع الضاحكين بل ويعلِّقون على النكات وما احتوته ساخرين فالصعيدي دائمًا ما تجده ساخرًا في تعليقاته وكل تنويهاته

خاصة عند سماعه للنكات، لأنه يدرك ويعي تمامًا مضامينها ومكنوناتها، بل ومكوناتها حتى قبل إلقائها من خلال فراسته في قراءة ملامح وتقسيمات وجه ملقيها، لكنه دائمًا يتعامل مع الغير بشرعية النبلاء ونبل الحكماء، فما أجمل كل تلك الصفات والتوصيفات التي التصقت بأهلنا في جنوب الوادي؛ فميزتهم دون غيرهم، ونعتتهم بأغلى وأجمل ما فيهم وهم بالفعل أهل لها.

وفى النهاية أذكركم فأقول: مرة واحد صعيدي اسمه مينا وحد مصر وجعلها إقليم واحد بدلاً من إقليمين شمالي وجنوبي، ومرة واحد صعيدي اسمه احمس طرد الهكسوس وطاردهم حتى الشام ومرة واحد صعيدي علم الدنيا قاطبة من شرقها إلى غربها كل العلوم الفلسفية وعاش إمامًا في الزهد والتصوف اسمه افلوطين ابن اسيوط، ومرة واحد صعيدي قبل الميلاد علم الدنيا قاطبة الحكمة وأدبيات الحوار، بالإضافة لكل المعاني الجميلة والافكار؛ إنه الحكيم لقمان أو لقمان الحكيم ، ابن النوبة ، ومرة واحد صعيدي اسمه شيخ العرب همام كبير قبائل هوارة، والذى سبق بثورته ضد حكام مصر من المماليك الثورة الفرنسية نفسها.

ومـرة واحـد صعيـدي اسمـه رفاعـة الطهطـاوي وثاني اسمـه العقـاد وثالـث اسمـه طـه حسـين ورابـع اسمـه عبـد النـاصر وخامـس اسمـه أمـل دنقـل وسـادس اسمـه الأبنـودي وسـابع اسمـه البـابا شـنوده وثامـن اسمـه عمـار التشريـعي وتاسـع حـتى المليـون وربمـا أكـثر مـن ذلـك.

إنهـم الصعايـدة، القمـم والأفـذاذ، سيعيشـون العمـر خالـد ذكـرهم ويبقـون دومًـا هم المرجـع والملاذ .

المأثورات

ارتبطت الأمثال الشعبية والمقولات المأثورة بالحياة اليومية للمصرين، وتسللت إلى كل مناسباتهم، وأضحت الضيف الدائم في كل الجلسات والأحاديث حتى على موائد الطعام والشراب وفى أيام الرحلات والسفاري وعلى المصاطب والطرقات، ودائمًا على المقاهي والكافيهات وهي عادة متداولة في الاحزان والتعازي وفى الافراح والمسرات وفى كل جلسات المصالحة والتراضي، فأضحت للمصريين انماطَ حياة، ومعيشة، ومن مقتضيات الضرورة لديهم، وجزء من عادتهم اليومية، ولا بدائل أو تبديلات تغني عنها؛ فالاحتكام إليها مشروع مباح، وتكرارها تذكير وتفكير، والعمل بها مفروض وملزم؛ فهي الدستور الشعبي المتفق عليه دونما اتفاق، والمعمول به دون ضغط أو إكراه.

وتبقى تلك المأثورات هي المنهج والوثيقة المبرمة حتى وإن خلت تلك الوثيقة من كل الأحرف والكلمات، فالنصيحة دائمًا في محتواها والحرص والحذر في مكنونها و بين ثناياها.

ونحن نرى ونسمع انه ما من حديث أو جلسة تخلو من أقوال مأثورة، أويتخللها مثل شعبي، لكن المؤكد أن كل تلك الجلسات والأحاديث تُختتم دائمًا أبدًا بمقولة أصبحت من الطقوس والتعودات وهي عادةً مسك الختام ، فترى أحدهم يُنهى حديثه أو محادثته بمقولة سيبها على الله وآخر يقول اللى يجى ف الريش بقشيش وتسمع خلينا جنب الحيط وآخر ينبهك على قد لحافك وهناك من يغريك ويحفزك قائلاً الغالى تمنه فيه.

وهناك من يريد أن يعيش يومه أولاً فيقول إحينى النهارده وموتنى بكره وعن المساواة يقولون كلنا في الهوى سوا وعند التمنى تسمع ليت الشباب. وهناك المقولة خيرها في غيرها تدعو إلى عدم اليأس والتمسك بالأمل وخدت الشر وراحت وتعنى عدم البكاء على اللبن المسكوب وعدم الحزن على ما انقضى وابعد عن الشر وغنيله تحذر من الوقوع في مشاكل أو مشاحنات مع الغير وفى التأنى السلامة تدعو إلى التروي والصبر والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين وهى تُعنى

الرضا بالقضاء والقدر والمية تكدب الغطاس وتعنى التحدى وقوة الإرادة وهناك الدم غطى العيب والتى يعمل بها في معظم جلسات المصالحة وهى تعنى أنه إذا أسال أحد الطرفين المتنازعين دم الآخر؛ فالمُسال دمه أصبح صاحب حق، حتى وإن شتم وسب خصمه قبل إصابته.

وهناك كلمات لها مدلولاتها كالمقولات مثل كلمة طز وهى لازمة يكثر استعمالها خاصة عندما تستنكر شيء أو تقلل من قيمته أو تُبدى أنك غير مبالٍ بما ينتج عنه، وأساس تلك الكلمة أن العرب قديمًا كانوا يقايضون الأتراك بالملح مقابل القمح وكلمة ملح معناها بالتركي طز، ولذا كان الشرطي التركي في نقطة التفتيش إذا رأى الملح مع العرب يشير ويقول طز طز وهو يعنى أن ما يحملونه هو الملح وذلك ليمروا، ويرد العربي طز قاصدًا أنه فعلاً ملح، وتلك المقولة تعنى أننا ومنذ زمن بعيد نستورد القمح فيبدو أننا تعودنا أكله ولم نتعود زراعته.

وهناك مقولة حيص بيص وهى لازمة تتكرر في كثير من الأحيان عندما نقع في ورطة ويسود نوع من اللخبطة والتشويش وعدم القدرة على اتخاذ القرار ومرجع تلك المقولة للشاعر والفقيه أبو الفوارس سعد بن محمد الصيفي التميمي عندما رأى مجموعة

من الناس في ورطة شديدة فأنشد يقول : ما للناس في حيص بيص . .

ومعنى حيص بيص الشدة والاختلاط.

وهناك المقولات المرتبطة بالمكان، تحكمها جغرافيته وعادات سكانه، وطباع أهله، وتقاليدهم فمثلا في دمنهور هناك المقولة المشهورة:

ألف نورى ولا دمنهوري.

والمقصود بالنورى: الشخص الماكر، المراوغ، صاحب الدهاء، والمحتال عادة، وهو نفسه الغجري.

والغجر: هم مجموعات من آسيا، وبالتحديد من الهند وما جاورها، هاجرت إلى كل بلاد العالم تقريبًا نتيجة مجاعات أو حروب أهلية ببلادها وذلك منذ ما يزيد عن ألف سنة خلت وتجدهم في كل دول العالم الأوروبية والإفريقية والعربية، وإن اختلفت مسمياتهم من مكان إلى آخر؛ فتارة تجدهم غجر وتارة أخرى نور وأحيانًا حلب، والمعنى واحد، لكنهم يحتفظون بعاداتهم، ونمط حياتهم منفصلين، ومنغلقين على أنفسهم في كل مكان يقطنونه أو يذهبون إليه.

ومـن عاداتهـم التنقـل والترحـال مـن بلـد إلى آخـر، وقـد عـانى الغجـر الكثـير مـن الإضطهـادات في البـلاد الـتي رحلـوا إليهـا أو عاشـوا فيهـا، ربمـا نتيجـة لوجـودهم في تجمعـات شـبه المنعـزلة والمنغلقـة عـلى نفسها،والابتعـاد عـن الآخـرين، وربمـا لامتهانهـم أوالبعـض منهـم مهنـة السرقـة والاحتيـال كما هـو حالهـم وطباعهـم في كل بـلاد العـالم، لـذا تعقبتهـم النازيـة في البـلاد الأوروبيـة في محـاولة لاسـتئصالهم والقضـاء عليهـم ، وبذكـر الغجـر فـإني أتذكـر عندمـا كنـت طفـلاً صغـيرًا في قريـتي أنـه كان لدينـا أوزة، كان الجميـع ينادونهـا بالغجريـة، وكان نتاجهـا مـن الأوز يتعـدى السـتين أوزة في السـنة الواحـدة، في حـين أن أقرانهـا مـن الأوز لـدى جيراننـا لا يتعـدى نتـاج الواحـدة منهـم مـن الأوز أكـثر مـن خمـس أو سـت في السـنة وأُطلـق عليهـا غجريـة لأن الغجـر والـذين كانـوا يقيمـون في خيامهـم وعشـشهم عـلى مقربـة مـن قريتنـا ـ وهى إقامـة غـير دائمـة ـ كما هي عادتهـم وطباعهـم فهـم دائمًـا ترانزيـت قـد سرقـوا منـا عـددًا مـن ديـوك الـرومي ـ والـتي كان والـدى رحمـة الله عليـه يهـوى تربيتهـا ـ وبعـد التأكـد مـن أن الغجـر هم مـن سرقـوا، عندهـا ذهـب إليهـم بعـض رجـال قريتنـا، وبعـد أن أشـبعوهم ضربًا ولطمًـا أقـروا واعترفـوا بمـا سرقـوه، لكنهـم كانـوا قـد باعـوا الـرومي وبنـاء

على حكم عمدة القرية حينها تم استبدال الرومي بالبط والأوز والذى كانت منه تلك الأوزة، والتي أُطلق عليها الغجرية نسبة إلى مالكيها أو سارقيها من الغجر، وربما نكتشف بعد فترة أن غزارة إنتاج تلك الأوزة من الأوزلا يعود إلى تميزها على أقرانها من أوز الجيران، ولكن لبراعتها في سرقة بيضهم،

ومن مشاهير الغجر في مصر وفى عالم الجريمة بالتحديد ريا وسكينة، وهما من سوهاج بالقرب من حدود أسوان نزحتا بعد ذلك إلى بنى سويف ثم إلى كفر الزيات وأخيرًا استقر بهما المقام في الأسكندرية، والتي كانت مسرحًا لجرائمهم وجرمهم وشهدت نهايتهم وإعدامهما كأول سيدتين مصريتين يتم تنفيذ تلك العقوبة فيهما، لكن هناك من الفنانين خاصة الشعبيين منهم من هو من أصول غجرية، وقد أمتعونا بأعمالهم الفنية الرائعة، والتي أحيوا من خلالها تراثنا الشعبي وحافظوا عليه. لا يعيبهم إطلاقًا ولا يُسئ إليهم أن تكون جذورهم غجرية يأتي على رأسهم الريس متقال وخضرة محمد خضر.

وبعد أن علمنا طبيعة حياة النور و طبعهم، فلك أن تتخيل هذا الدمنهوري العجيب، وكم هي فراسته وفطنته وذكاءه والتي من خلالها يستطيع وحيدًا أن يتغلب على ألف من النور لا

بقوته وعنفوانه، ولكنها الحكمة والحصافة وحسن تدبير الامور. وتلك المقولة ليست سُبة أبدًا أو بذاءة يخجل منها أو يكره سماعها أهل دمنهور أو قاطنيها، بل هي مقولة لهم أن يفخروا بها ويسعدوا بترديدها وهى الحجة الدامغة والدلالة القاطعة التي تجعل الكل يفكر ألف مرة إن هو أراد التحايل أو خداع أي من أهلها ومرجع تلك المقولة أن يهوديًا في قديم الأزل جاء زائرًا إلى دمنهور؛ تلك المدينة القديمة قدم التاريخ بل هي من أقدم المدن المصرية؛ فهي أرض الإله حور واسمها (دي من حور) وحُوِّرَت إلى دمنهور بعد ذلك.وكانت عاصمة الإقليم الشمالي لمصر قبل توحيد مينا للإقليمين أو القطرين وجعلهم قطرًا واحدًا وكان هذا اليهودي شديد المكر والدهاء فنادى ـ بعد أن نزل من على ظهر دابته ـ على أحد الصبية الجالسين على ناصية إحدى الحارات وأعطاه نكلة واحدة وهى عملة معدنية كانت متداولة منذ خمسن أو ستين عامًا خلت وهى تعادل قرشًا ونصف أو قرشين تقريبًا وقال له أرجو أن تُحضر طعامًا لي وطعامًا لحماري وتأتى لي بما أشربه بالإضافة إلى شيء (أتسلى) به ولك بقية النكلة، فذهب الفتى ثم عاد بعد قليل حاملاً بين يديه بطيخة وأعطاها لليهودي قائلاً: اتفضل سيدى.

فرد اليهودي: كيف هذا ألم أقل لك طعامًا لي ولحماري وأشرب وأتسلى.

قال الفتى: يا سيدى لك البطيخة تأكلها وحمارك يأكل قشورها وتشرب أنت مائها وتتسلى ببذورها؛ فبُهت اليهودي من إجابة الفتى وسرعة بديهته وحسن فطنته، وأدرك حينها أن تلك البلدة لابد من مغادرتها، فإذا كان هذا هو حال فتيانها فما بال حكماءها و شيوخها، ولم يبق بدمنهور بعد ذاك اليوم يومًا آخر، وغادرها على الفور إلى مدينة أخرى علَّه يجد فيها ضالته التي ينشدها، ويكون أهلها أقل فطنة و فراسة فيعيش فيها ما بقى من عمره حيث يكون هو الأذكى والأدهى وساعتها و بأقل الجهود يسوس ويسيطر ومن ثم يتحكم كما هي طبيعة وعادة أولاد العم، ولكن ما يثير الدهشة أنه غادر مصر قاطبة بعد فترة قصيرة حيث لم يجد أبدًا ضالته في أي من مدنها، ولاحتى قراها ونجوعها.

وعلى أهل المنوفية تطلق مقولة المنوفى لا يلوفى ولو أكلته لحم الكتوف، الجميع بلا استثناء يسئ فهم هذه المقولة ظنًا منهم أنها تعبرعن الخسة ونكران الجميل.

والمعنى المراد والمضمون المقصود عكس ذلك تمامًا أنه يعنى الوفاء والحفاظ على العهود والمواثيق بمعنى أنه مهما أهديت المنوفي من هدايا وعطايا ومهما أظهرت من حلو الكلام ومعسوله ومهما حاولت جاهدًا مداهنته هادفًا أن يكون معك يساندك ويقف بجانبك ضد مظلوم أو صاحب حق أو أن يخون أوطانه أو يشي بناسه وأصحابه فإن المنوفى لن يطاوعك مهما حاولت وبذلت من جهد ومساعي، بل سيكون ضدك على طول الخط، وستصبح عدوًا له في التو واللحظة ولتذهب هداياك ومعسول كلامك إلى الجحيم.

إذن المعنى المقصود بهذا المثل أن المنوفى لا يداهن ولا ينافق ولا يخون وعدم الوفاء هنا لا يخص المنوفى بل هو لمن أساء وأجرم وحاول المداهنة وشراء الذمم. وأنه لفخر لكل مصري لا المنوفى فحسب أن لا يكون وفيًا مع الظالم والمتجبر.

وهناك المقولة التى تقول أن الشراقوة عزموا القطر وسدوا البحر بتبن. وهى تنم عن الجود والكرم والطيبة والبساطة وتلك الصفات بالفعل هي سمات ارتبطت بأهل الشرقية؛ فالشرقاوي كريم مضياف بطبعه بلا سفه أو إسراف وطيب بسيط لا تكلف عنده او اصطناع، لكنه لم يكن أبدًا ساذجًا

وهناك أمثال ذو قالب اجتماعي وهى كثيرة إن لم تكن هي أغلب المقولات والأمثال مثل: حبيبك يمضغلك الظلط وعدوك يتمنالك الغلط.

نسمع دومًا هذا المثل وهو قيمة ومعنى ومضمونه أن مَن يحب يحافظ على محبوبه، ويحميه، ويغض الطرف عن أخطائه وخطاياه، ويغمض عينيه عن المساوئ والعيوب ويراه دائمًا ودومًا بلا أخطاء وإن كثرت، وبلا خطايا وإن زادت وتعددت.

أما من يكرهك فيراك على الدوام مشينًا سيئًا، ومهما أصلحت من أحوالك، وعدلت من سلوكياتك لترضيته ولتكسب وده فهو لن يرضى عنك أبدًا وباي حال من الاحوال، وصورتك لن تتغير معالمها بالنسبة له، فربما تكون من أحسن الناس خلقًا ومبادئًا وتصرفاتٍ، والأفضل أدبًا وسلوكيات، لكن من يكرهك يراك عكس ذلك تمامًا.

والقط في عين امه غزال مثل يشبه كثيرًا الشق الأول من المثل السابق له (حبيبك يمضغلك الظلط) أي أن الأم ترى ابنها الأحسن والأنبل، بل إنه الافضل للغير، وصاحب الفضل دائمًا على كل المحيطين به، أو بمعنى إن كان ابنها هذا قطًا

فهي لا تراه كذلك، بل تراه غزالاً بعيدًا عن فصيلة القطط وأشباهها، لكن الأهم والأعمق هي صورته كما يراها الآخرون، لا كما تراها الأمهات والمقربون، وهناك القِرش الابيض ينفع في اليوم الاسود وهو يدعو إلى التوفير وعدم التبذير؛ فما توفره وقت رخائك ينفع بالقطع أيام عوزك وحاجتك، كما من الحِكَمَ مقولة القُفة أم ودنين يشلوها اتنين حيث الحض والتشجيع على المشاركة والتعاون والمساهمة مع الغير وأن نكون سويًا يدًا بيد، وهناك اللى اتلسع من الشوربة بينفخ في الزبادى وهو يعنى أنه لابد للإنسان أن يتعلم من أخطائه، ولابد من الحيطة والحذر والبعد عن التهور والاندفاع.

وهناك اللى ميعرف الصقر يشويه والمعنى المقصود أن الجاهل والسطحي لا يعرف ولا يفرق بين هذا وذاك، فإذا يومًا أسعده حظه واصطاد صقرًا، وربما يكون من النوعية أو الفصيلة النادرة، يُسرع ويشويه لياكله، بالضبط كما لو كان اصطاد يمامة أوحمامة اوحتى عصفورًا. فهو لا يفقه ولا يفهم أو يعى الفروقات، فزيد كما عبيد عنده، أى أنه لا يعرف قدر الناس ومقاماتهم.

وكذلك هناك اللى اختشوا ماتوا: وهى تحكى قصة النسوة المرتادين لأحد حمامات البخار إبان العصر العثمانى وحينما حدث

حريق داخل أحد تلك الحمامات، والتهم من ضمن ما التهم ملابس كل النسوة؛ فبعضهن خرجن عاريات هربًا من الحريق وفرارًا من موت محقق، ومن أجل النجاة بحياتهن وبعضهن فضلن أن يبقين ويحترقن أفضل من عار خروجهن عرايا، بما يعنى أنه من خجل أو (اختشى) كما يقال بالعامية مات ومن لم يشغله ذلك نجا من موت محقق.

وهناك لاقينى ولا تغدينى: وهذا يعنى أن البشاشة والترحاب فى المقابلة حتى وإن لم تطعمني رغم جوعى أهم من أن تقابلني بوجه عبوس، وتأتى لي بكل الطعام والشراب.

واللى ميعرفش يقول عدس: ومرجعها أن أحد البقالين رآه الناس ممسكًا بعصا غليظة مطاردًا رجلاً و جوال عدس على أرضية المحل وقد تناثر العدس منه؛ فظنوا أن البقال يريد قتل الرجل بسبب أنه دفع بجوال العدس على الأرض؛ فعاتبوا البقال قائلين له: كيف تريد أن تفتك برجل بسبب جوال عدس؟.

فرد عليهم البقال قائلاً: هذا الرجل لص، سرق كل نقودي من المحل وأثناء هروبه مسرعًا صدم جوال العدس وطاردته من

أجل نقودي لا من أجل العدس.

وموت يا حمار تحكى مضمون قصة جحا مع الملك والتي مفادها: أن جحا وعد الملك أنه سوف يعلم حماره الكلام، فلما سأله أصحابه كيف ذلك يا جحا إنك تؤدى بنفسك إلى التهلكة بوعدك وإخبارك الملك بالمستحيل؛ فرد جحا قائلاً:

لا تتزعجوا لذلك؛ فالأقدار كفيلة بالحل؛ فربما يموت الملك أو يموت جحا وقد يسبقنا إلى الموت الحمار ،(وحلِّني) عندما يأتي ذلك، وحسبة بُرما وحكاية البيض الذى كانت تحمله إحدى النساء في قرية بُرما بالغربية، وسقط من على رأسها وتم تكسيره عن آخره بعد اصطدام أحد المارة، وكان راكبًا حماره، وحيث أن الرجل الذى صدمها نزل عن حماره و تأسف لها عما حدث، وقال كم عدد البيض لأدفع لك ثمنه؟ فقالت له: أنا لا أعرف كم عدده، لكن إذا جعلته كومتين متساويتين تكون هناك بيضة زيادة، وكذلك إذا جعلته ثلاثة أكوام أو وأربعة أوخمسة أوستة، في كل مرة تكون هناك بيضة زيادة، إلا إذا جعلته سبعة أكوام، وعليك عزيزي القارئ أن تحسب كم عدد البيض، وتلك هي حسبة بُرما ومعضلتها.

ويأكلوها والعة: وهى تعنى عدم الاكتراث أوالاهتمام ومرجعها إلى أحد بائعي البطاطا، والذى كان زبائنه يفضلونها طازجة وسخنة، وعندما جاء زبون جديد، وشاهد ما يحدث سأل البائع متعجبًا:

كيف لهؤلاء أن يأكلوا البطاطا وهى هكذا؟

فأجابه: أنهم يأكلونها والعة سيدى.

وكله كوسة وأساس تلك المقولة أنهم كانوا يستثنون الكوسة في المرور إلى أسواق الجملة في فترات الذروة والزحام وذلك لسرعة عطبها وفسادها، رغم أنه من وجهة نظري أن الكوسة أكثر تحملاً عن كثيرمن الفواكه والخضروات.

المهم استغل بعض ضعاف النفوس ذلك ، حيث يقوم المسئول اذا تمت رشوته بالسماح بعبور أي شحنة أيًا كانت من البطيخ أو البطاطس أو خلافه، وعندما يسأله البعض لماذا الاستثناء ؟ يجيب لا يوجد استثناءات؛ فالحمولة من الكوسة، لذا وجب مرورها بسرعة و بالطبع هي ليست كذلك.

وقليل البخت يلاقى العضم في الكرشة: كناية عن الحظ السيء

حيث أنه من المعروف والمعلوم أن الكرشة وهى معدة الحيوان لا عظام أبدًا فيها، لكن لو كنت أنت من سيئي الحظ والطالع فلا تستغرب أبدًا أن تصادفه.

ولف سنة ولا تخطى قنا:

وهناك بعض المقولات والامثال والتي تستهدف شريحة معينة من المجتمع مثل الفلاح والتي تعنى دومًا بظروفه وأحواله المعيشية ومن خلالها يستطيع أن يحدد وقت حصاده وميعاد غرسه وزراعته، وتلك المقولات كثيرة متداولة في الريف المصري حتى يومنا هذا، وعادة ما تكون مرتبطة في غالبيتها بالشهور القبطية القديمة، والعمل بنواميسها، لما لها من تأثير واضح على حياة الفلاح وأسلوب معيشته؛ فهو يحفظ تلك الشهور عن ظهر قلب، ويعلم تمامًا أهميتها بالنسبة له ومدى تأثيرها عليه؛ فمثلاً:

كياك ...صباحك مساك: وهو يعنى قصر النهار في شهر كياك مقارنة بالليل، وكما هو معلوم أن كياك من الشهور الشتوية بجانب طوبة وأمشير، وعليه يجب على الفلاح أن يسعى جاهدًا طوال ساعات نهاره القصيرة، وينبغي عليه الصحيان مبكرًا

لإنجاز أعماله، وطلبًا لرزقه قبل فوات الأوان. وهناك أمشير وتقلباته وزعابيبه حتى أن الشخص المتقلب المزاج يُطلَق عليه أمشير ويعتبر هذا الشهر هو الميعاد الأصلح والأنسب لغرس الشتلات والأشجار وبرمودة... ودق العمودة:

وهوما يعنى أنه قد حان موعد حصاد الحبوب والغلال.

وابى شمس.. يكنس الغيط كنس ومعناه أن كل المحاصيل قد تم حصادها وأصبحت الأرض خالية من أية زراعات ويجب تجهيزها وتهيئتها لغرس جديد.

وهناك برمهات ويقولون: إذا جاء برمهات روح الغيط وهات وهو ما يعنى قرب جنى الثمار.

وبؤنة والذى يعرف الفلاح بقدومه ميعاد فطم الكثير من زراعاته، أي حجب الماء عنها لأن السقاية في هذا التوقيت تضر أكثر ما تنفع وكذلك شهر توت وارتباطه بفقس البيض وتربية الطيور، وهناك العديد من تلك الشهور لا تقل أهمية في ارتباطها بالفلاح وتأثيرها عليه كشهر مسرة وهاتور وأبيب وطوبة.

حقًا إنها العبقرية المصرية؛ فهذا الفلاح المصري البسيط أنتج أجود محاصيله وأوفرها، وملأ صوامعه الطينية البسيطة بالحبوب والغلال موفرًا كل احتياجاته واحتياجات غيره على مدار العام، وذلك من خلال وسائله البسيطة وبآلات بدائية لم يطرأ عليها تحديث أو تغيرات تذكر منذ عهد المصريين القدماء وحتى عهد قريب مضى، كالشادوف والساقية والنورج والمحراث البلدي والفأس مستعينًا فقط بحكمته وإدراكه، وبفضل معرفته لأهمية الدورة الزراعية واستغلاله لدورها الفاعل في زيادة غلاته ومحاصيله، والفراسة في تحديد أوان غرسه وزراعته واختيار الميعاد الأنسب للسقاية والفطام، ومتى يكون حصاده بالإضافة لسلامة حفظه وتخزينه، وهو بذلك قد تخطى الزراعة الحديثة بكل تقنياتها ومكوناتها، و سبق معامل البحوث الزراعية، وعمليات التهجين الوراثي، ووسائله المطوَّرة، لا بشيء إلا بعمله الدؤوب، وسعيه واجتهاده معتمدًا على فطنته وكياسته في كل أعماله وتصرفاته، بالإضافة لأفكاره وابتكاراته، وهناك مقولات حديثة يتم تداولها مثل من تزوج امرأة لجغرافيتها فحتمًا سيطلقها لتاريخها: والمعنى هنا مفهوم، فكلنا يفهم الجغرافيات ويَعي تمامًا التواريخ ، وهناك المقولة التي تقول قبل أن تطلبي من الله

أن يشرح لك صدرك ياريت تغطيه!! وأظن أن المقصد هنا واضح أيضًا لكن غلاء الأسعار وارتفاع أثمان بعض القماشات قد يكون له دخل !

وهناك مقولة تنسب إلى هتلر تقول: أن هتلر قال كان: بإمكاني قتل جميع اليهود لكنى تركت بعضهم ليعرف الناس لماذا قتلتهم، وأظن أننا نحن المصريين وبصفة خاصة وبعد كل تلك السنوات قد ادركنا تمامًا لماذا قتلهم هتلر، وهناك من المقولات ما تسببت في قتل اصحابها، كما حدث قديمًا مع المتنبي عندما خرج عليه فجأة بعض قاطعي الطريق، وكان فقط هو وغلامه فحاول الهروب وكان باستطاعته ذلك لكن غلامه ذكره ببيت شعره المعروف الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم؛ فعاد المتنبي ليتصدى لمطارديه فكانت نهايته ، وحديثًا استمرت لازمة زنقة زنقة على لسان القذافي في أواخر أيامه وكان يكررها كثيرًا حتى كانت نهايته في ماسورة صرف صحى، لكنى أعتقد أنها كانت أكثر ضيقًا و زنقة من الزنقة التي كان يعنيها القذافي!

وفى النهاية نقول أن هناك مأثورات جديدة مبتكرة يتم إضافتها ربما يوميًا ، قد نعلمها في حينها وقد نفاجئ بوجودها صدفة

وقدرًا، فهي تأتي دومًا حسب متطلباتنا و حاجتنا اليومية وتبعا للظروف والمستجدات الحياتية التي نمر بها ونعيشها فكلما كان هناك حاجة وعوز كان الابتكار والابداع وتؤكد ذلك مقولة أن الحاجة أم الإختراع وليس هناك من هو أكثر منا حاجة وأشد احتياجًا؛ فها نحن تؤرقنا مشاكلنا وإشكالاتنا آناء الليل والنهار، لذا نأمل و نستنجد بأية ابتكارات تنقذنا ونتوق دومًا إلى مزيد من المستجدات، فإنها إن لم تكن حلاً للبعض من مشاكلنا فيكفينا أنها قد تساعدنا في الهروب من تبعية معظمها.

رقم إيداع ٢١١٠/ ٢٠١٥ط١

الترقيم الدولى / ١٠- ٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر
والتوزيع